كيف نحب الله
ونشـتاق إليه؟

حقوق الطبع محفوظة

طبعة مزيدة ومنقحة

الطبعة الأولى

١٤٢٨ هجري - ٢٠٠٧ ميلادي

الطبعة الثانية

١٤٤٤ هجري - ٢٠٢٣ ميلادي

رقم الإيداع: ٢٥١٢١ / ٢٠٠٦م

الترقيم الدولي: I.S.B.N

٢-٠٠٩-٤٤١-٩٧٧

كيف نحب الله ونشـتاق إليه؟

مجدي الهلالي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقَـدّمَة

بالله أستعين

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى، والصلاة والسلام على الحبيب المصطفى محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد..

فالحب -كما نعلم- جزء أصيل من مشاعر الإنسان، وهو معاملة قلبية يشعر من خلالها المرء بميله وانجذابه إلى الآخر.

والواقع المشاهد يخبرنا بأنه عندما يتمكن الحب في القلب بين شخصين فإننا نجد آثار هذا الحب بادية في تعامل أحدهما مع الآخر، فتجد كلًا منهما يكثر من ذكر محبوبه، ويشتاق دومًا إلى رؤيته، ويرغب في الخلوة به، ويأنس بقربه، ويغضب من أجله، ويغار عليه.. يُقرِّب من يحبه محبوبه، ويبغض من يبغضه، يطيع أوامره بسعادة وحبور، ويضحي من أجله، ويفرح بهداياه مهما صغرت.

فهذه وغيرها بعض آثار الحب عندما يتمكن من قلوب البشر تجاه بعضهم البعض.

فكيف ينبغي أن تكون هذه الآثار عندما يصبح المحبوب هو المحبوب الأعظم؟!

كيف يكون حال من يتمكن حب الله من قلبه؟!

بلا شك فإن آثارًا عظيمة ستظهر على هذا المحب الصادق لمولاه سبحانه وتعالى، وستراه دومًا يكثر من ذكره ويأنس بقربه، ويستوحش مما سواه، ويحب الخلوة به ومناجاته، يسارع في طاعته ويعمل دومًا على رضاه، يغار على محارمه، ويغضب من أجله، يفرح بعطاياه ويشكره دومًا عليها، يُضحي بالغالي والرخيص من أجله، يرضى بكل ما يقضيه له، ويبذل غاية جهده في خدمته، ويشتاق دومًا إلى رؤيته.

ولكننا نحب الله!

فإن قال قائل: ولكننا نحب الله ومع ذلك لا نشعر بكل هذه العلامات.

نعم، في القلوب حب لله عَزَّوَجَلَّ، ولكنه في الغالب لم يصل للدرجة التي تهيمن وتسيطر على المشاعر وتحتل الجزء الأكبر منها، فمع وجود قدر من حب الله في القلب إلا أن هناك محابٌّ أخرى تُشوِّش عليه، وتنازعه المكان مثل حب النفس والمال والأولاد والزوجة و...

وليس معنى هذا أن المطلوب هو تجريد مشاعر الحب من هذه الأمور، بل المطلوب أن يكون حب الله أكبر منها جميعًا كما قال تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ**﴾ [البقرة: ١٦٥]، فإن لم يحدث هذا فلن تظهر تلك العلامات، وهذا ما أكده رسول الله ﷺ بقوله: «**ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا**... »[1].. الحديث.

فلكي يجد المؤمن حلاوة الإيمان لا بد أن تكون مساحة حب الله في قلبه أكبر من مساحة حبه لما سواه من المحابِّ الأخرى مجتمعة.

(١) البخاري في الإيمان، باب حلاوة الإيمان (برقم: ١٦)، مسلم في الإيمان، باب بيان خصال الإيمان (برقم: ٤٣).

المعرفة طريق المحبة

المحبــة ما هي إلا صورة من صور المعاملة التي ينبغــي أن يعامل بها العبد ربه، وأكبر عامل يؤثر ويحدد درجة المعاملة هو المعرفة.

فكلما ازدادت المعرفة بالله تحسنت درجة معاملة العبد له، وازداد له حبًّا وإجلالًا وهيبةً وخشــية، وفي المقابل عندما يجهل الإنسان ربه، ولا يعرف قدره فإن ذلك من شأنه أن يؤدي إلى أن يعامله معاملة لا تليق بجلاله وكماله، فيخشى الناس أكثر مما يخشاه، ويحب نفسه وماله وعقاراته أكثر مما يحب ربه، ويجتهد في التزيُّن للآخرين دون أن يبالي بربه.

فالسبب الأول لإعراض الناس عن الله، واستهانتهم بأوامره هو جهلهم بقدره سبحانه: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت: ٢٢، ٢٣].

ويؤكد الحافظ ابن رجب على أن المعاملة على قدر المعرفة بقوله:

«لا قوت للقلب والروح، ولا غذاء لهما ســوى معرفة الله تعالى، ومعرفة عظمته وجلاله وكبريائه. فيترتب على هذه المعرفة: خشيته، وتعظيمه، وإجلاله، والأنس به، والمحبة له، والشوق إلى لقائه، والرضا بقضائه»[1].

المعرفة النافعة

المعرفة المؤثرة النافعة ليســت تلك التي تخاطب العقل فقط، فالكثير من الناس يتحــدث عن الله حديثًا جميلًا ومبهرًا، فإذا ما نظــرت لواقعه وجدت فعله بعيدًا عن

(١) مجموعة رسائل ابن رجب (٢/ ٤٦٧).

قوله، فلا خشـــية ولا تقوى ولا مهابة ولا إجـــلال لله: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١].

فإن أردنا معرفةً تؤثر في المعاملة فـــلا بد أن تتم مخاطبة العقل والقلب معًا، وأن تستمر تلك المخاطبة حتى يســـتقر مدلولها في قلب ومشاعر الإنسان، فتُشكل مقامًا إيمانيًّا مســـتقرًّا في القلب يظهر أثره في سلوك العبد وأعماله: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ ﴾ [الحج: ٥٤].

.. معنى ذلك أن الطريق الأساسي لرحلة المحبة يبدأ من بوابة المعرفة الحقة بالله عَزَّوَجَلَّ، على أن تخاطب تلك المعرفة: الفكر والوجدان.

يقول ابن تيمية: «وأصل المحبة هو معرفة الله سبحانه وتعالى»(١).

ومع هذه المعرفة، لا بد من القيام بأعمال تؤكد وترســـخ مدلول الحب في قلوبنا فيزداد استقرارًا وهيمنةً على مشاعرنا: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ [النساء: ٦٦].

وفي الصفحات القادمة ســـيكون الحديث بمشـــيئة الله عن أهمية المحبة وثمارها ونقطة البداية لرحلة المحبة، مع ذكر بعض الوســـائل العملية التي من شأنها أن تسير بنا قُدمًا في طريق حب الله عَزَّوَجَلَّ، لعلنا نستنشق نسيم الأنس به في الدنيا، فتزداد قلوبنا شـــوقًا إليه سبحانه، لتكون أســـعد لحظاتنا تلك اللحظات التي تُقبض فيها أرواحنا ونُبشر من الملائكة بلقاء الحبيب جل وعلا وهو راضٍ عنا.

● ● ●

(١) التحفة العراقية في الأعمال القلبية لابن تيمية (ص:٦١).

تمهيد

العبوديــة الحقة لله عَزَّوَجَلَّ تعني في حقيقتها اتجاه الجزء الأكبر من مشــاعر العبد نحوه ســبحانه، حتــى ينعكس ذلك على معاملتــه له بمقتضى الحال التي يعيشــها والأحداث التــي يمر بها، ليتمثل فيه قوله ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْــمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»(١).

هذه هي العبودية الحقة من المؤمن لله عَزَّوَجَلَّ، أن يعبده ســبحانه، وتتجه مشاعره نحوه حسب الحالة التي يمر بها، فتجده يتقلب بين الخوف والرجاء والرضا والفرح والانكسار و...

أما العبودية الناقصة فهــي تتمثل في التركيز على جانب أو جوانب بعينها وترك أخرى، فهذا الأمر له أضرار كثيرة، ومنزلقات خطيرة.

يقول ابــن رجب: «وقد عُلــم أن العبادة إنما تنبني على ثلاثــة أصول: الخوف والرجاء والمحبة، وكل منها فرض لازم، والجمع بين الثلاثة حتم واجب، فلهذا كان السلف يذمون من تعبد بواحد منها وأهمل الآخرَين.

فإن بدع الخوارج ومن أشــبههم إنما حدثت من التشديد في الخوف والإعراض عن المحبة والرجاء.

---

(١) مسلم في الزهد، باب المؤمن أمره كله خير (برقم: ٢٩٩٩)، ابن حبان (٧/ ١٥٥/ ٢٨٩٦) كتاب الجنائز، باب إثبات الخير للمسلم الصابر عند الضراء والشاكر عند السراء، أبو نعيم في الحلية (١/ ١٥٤).

وبدع المرجئة نشـأت من التعلق بالرجاء وحده، والإعراض عن الخوف. وبدع كثـير من أهل الإباحة والحلول -ممن يُنسـب إلى التعبد- نشـأت مـن إفراد المحبة والإعراض عن الخوف والرجاء»[١].

سياج المحبة

معنى ذلك أن عبادة الله بالمحبة فقط لها مخاطرها ومنزلقاتها.

يقول ابن تيمية: «الحب المجرد تتبسـط النفوس به حتى تتسـع في أهوائها إذا لم يزعها وازع الخشـية لله، حتى قالت اليهود والنصارى: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]» [٢].

لذلـك كان مقياس المحبة الصادقة لله عَزَّوَجَلَّ هو ظهور علاماتها التي بينها الله في كتابه، وبينها رسوله ﷺ في سنته والتي سيأتي بيانها بشيء من التفصيل في الصفحات القادمة.

يقول ابن تيمية

فاتباع سـنة الرسـول ﷺ واتباع شريعته هي موجب محبة الله، كما أن الجهاد في سـبيله، وموالاة أوليائه، ومعاداة أعدائه هو حقيقتها، كـما في الحديث: «**أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ، الْـحُبُّ فِي اللهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللهِ**»[٣].

وكثير ممن يدَّعي المحبة هو أبعد من غيره عن اتباع السنة، وعن الأمر بالمعروف،

---

(١) استنشاق نسيم الأنس لابن رجب (ص: ١٨- ٢١).

(٢) التحفة العراقية في الأعمال القلبية لابن تيمية (ص: ٥٩).

(٣) مجمع الزوائد (١/ ٤٤٧ برقم: ٣١٠) وعزاه للطبراني في الصغير، وانظر الكلام عليه الجامع الصغير (برقم: ٢٨٧٨).

وعن النهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، ويدَّعي مع هذا أن ذلك أكمل لطريق المحبة من غيره، لزعمه أن طريق المحبة لله ليس فيه غيرة، ولا غضب لله، وهذا خلاف ما دل عليه الكتاب والسنة، ولهذا في الحديث المأثور: «**إِنَّ اللهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي، الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي**»(١).

فقوله: أين المتحابون بجلال الله، تنبيه على ما في قلوبهم من إجلال الله وتعظيمه والتحاب فيه، وبذلك يكونون حافظين لحدود الله، دون الذين لا يحفظون حدوده لضعف الإيمان في قلوبهم»(٢).

ضرورة التوازن

لا بد إذن من التوازن بين ألوان العبودية، وأن نقرأ الأحاديث والأخبار الواردة في كل باب من أبواب العبودية لله فنضعه في حجمه المناسب، وألا نجعل جانبًا يطغى على الآخر.

قال رسول الله ﷺ: «**لَو عَلِمْتُمْ قَدْرَ رَحْمَةِ اللهِ لَاتَّكَلْتُمْ وَمَا عَمِلْتُمْ مِنْ عَمَلٍ، وَلَوْ عَلِمْتُمْ قَدْرَ غَضَبِهِ مَا نَفَعَكُمْ شَيْءٌ**»(٣).

فكما أنه ينبغي للمسلم أن يفتح لقلبه بابًا لحب الله والرجاء فيه، فعليه كذلك أن يفتح بابًا للخوف منه سبحانه وخشيته.

---

(١) مسلم في البر والصلة، باب فضل الحب في الله (برقم: ٢٥٦٦)، الموطأ: في الشعر باب ما جاء في المتحابين في الله (٢/ ٩٥٢ برقم: ١٧٧٦).

(٢) التحفة العراقية (ص: ٦٠).

(٣) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٢١/ ١١٥ برقم: ١٧٥٦٢)، (٢٢/ ٢١٠ برقم: ١٨٥٠١) وعزاه البزار، وهو بلفظ «**لو تعلمون قدر رحمة الله لاتكلتم عليها**»، وأما هذه الرواية الموجودة هنا فهي عند أبي الدنيا في حسن الظن بالله (برقم: ٦٤).

لا بد من فتح هذين البابين لكي نحقق مراد الله في قوله تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ ﴾ [الذاريات:٥٠].

فمن رجا شيئًا طلبه، ومن خاف شيئًا هرب منه، فعلينا أن نطلب رضا الله ومحبته والقرب منه، ونفر من كل ما يغضبه فنحقق بذلك حقيقة الفرار إلى الله.

أما إذا فتحنا باب الخوف فقط فسيكون الفرار من الله لا إليه، وفي المقابل فإن العكس يخدع النفس ويدفعها للغرور.

قال أبو سليمان: من حَسُن ظنه بالله عَزَّوَجَلَّ ثم لا يخاف الله فهو مخدوع[١].

وهذا أحد السلف وهو عبد الواحد بن زيد يسأل زياد النميري: ما منتهى الخوف؟

قال: إجلال الله عن مقام السيئات.

فقال: ما منتهى الرجاء؟

قال: تأمل الله على كل الحالات[٢].

من خشي الرحمن بالغيب

سُئل أحد المديرين يومًا: هل تُفضِّل أن يخافك الموظفون أم أن يحبوك؟

فأجاب: أُفضل أن يخافني الموظفون على قدر حبهم لي.

ولقد تحدث القرآن كثيرًا عن التقوى، وحثَّ عليها..

(١) حسن الظن بالله لابن أبي الدنيا (ص: ٢٧٨).

(٢) المصدر السابق (ص: ٧٧).

يقول تعالى: ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

والتقوى هي الحذر، وكما قال ابن رجب رحمه الله: أصل التقوى أن يجعل العبد بين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه.

وإننا هنا في هذه الصفحات، نريد -بعون الله- أن نصل إلى درجة تقوى المحب، أن نخاف من ارتكاب ما يغضب مولانا وحبيبنا.

.. إن الخوف والرهبة من دوافع تقوى الله عَزَّوَجَلَّ، لكننا نريد أن يكون دافعنا للتقوى بالأساس الحياء منه سبحانه، وطاعتنا له طاعة المحب لحبيبه.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق: ٣١-٣٣].

إن معاملة الله لنا أسمى من معاملة أبوينا، وحبه لنا يفوق أضعاف حبهم وحرصهم علينا، فعن عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال:

قَدِم عَلَى رسولِ الله ﷺ بِسَبْيٍ، فإذا امرأةٌ مِن السَّبْيِ تَسْعَى، إِذْ وَجَدَتْ صَبِيًّا في السَّبيِ فأَخَذَتْهُ وَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟** قلنا: لا والله، وهي تقدرُ أن لا تطرحَه، فقال رَسُولُ الله ﷺ: «**للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**»(١).

إننا عندما نؤمن بهذه الحقيقة فإن آيات التخويف والترهيب ذاتها ستتحول إلى دلالات لمحبة الله عَزَّوَجَلَّ، فالأب الذي يلمس تقصيرًا من ولده اللاهي في استذكار

(١) البخاري (٨/ ٨ برقم: ٥٩٩٩)، ومسلم (٤/ ٢١٠٩ برقم: ٢٧٥٤).

دروسه، رغم تحفيزه المستمر له ووعوده بالهدايا والمكافآت حال نجاحه؛ لا يجد بُدًّا من ترهيبه وتخويفه، وقد يظهر غضبه عليه ويعاقبه، كل ذلك لأنه يحبه ويخاف عليه من الرسوب وعواقبه الوخيمة عليه.. تأمل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦].

رحلة المحبة

ولأننا في هذه الصفحات نتناول عبودية المحبة، وكيف نُنميِّها في قلوبنا، فإن الحديث سيكون بمشيئة الله وعونه مُنصبًّا على كل ما يستثير مشاعر الحب لله عَزَّوَجَلَّ والرجاء فيه؛ لذلك أطلب منك ومن نفسي -أخي القارئ- ألا تنسى هذه الكلمات التي تم ذكرها في هذا التمهيد وأنت تقرأ الصفحات القادمة، ونفس الأمر سنطلبه منك بمشيئة الله عندما نتحدث عن عبودية الخوف والخشية لله عَزَّوَجَلَّ في موضع آخر.

كيف نفتح باب المحبة؟!

يقول ابن عطاء في حِكمه:

إذا أردت أن ينفتح لك باب الرجاء فاشهد ما منه إليك، وإذا أردت أن ينفتح لك باب الخوف فاشهد ما منك إليه.

ونحن هنا في هذه الصفحات نريد -بعون الله وكرمه- أن ينفتح لنا باب الحب والرجاء في الله، لذلك سيكون غالب الحديث في التعرف على الله الودود، ومظاهر معاملته الحانية لنا.

• • •

الفصل الأول

أهمية المحبة الصادقة

الثمار الحلوة

كلما تعرف العبد على مظاهر حب ربه له، وسيطرت هذه المعرفة على مشاعره انعكس ذلك على علاقته به سبحانه فيزداد له حبًّا وشوقًا.

وعندما يملأ هذا الحب قلبه ستكون له بلا شك ثمار عظيمة تظهر في سلوك العبد وأعماله، من الصعب الحصول عليها من أي شجرة أخرى غير شجرة الحب، فالحب يُخرج من القلب معانٍ للعبودية ولا يخرجها غيره.

يقول ابن تيمية: فمن لا يحب الشيء لا يمكن أن يحب التقرب إليه؛ إذ التقرب إليه وسيلة، ومحبة الوسيلة تبع لمحبة المقصود[١].

وإذا كانت المحبة أصل كل عمل ديني، فالخوف والرجاء وغيرهما يستلزم المحبة ويرجع إليها، فإن الراجي الطامع فيما يطمع فيما يحبه لا فيما يبغضه، والخائف يفر من المخوف لينال المحبة: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧][٢].

ولهذا اتفقت الأُمتان من قبلنا على ما عندهم من مأثور وحِكم عن موسى وعيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أن أعظم الوصايا: أن تحب الله بقلبك وعقلك وقصدك، وهذه هي حقيقة الحنيفية ملة إبراهيم التي هي أصل شريعة التوراة والإنجيل والقرآن[٣].

---

(١) التحفة العراقية (ص: ٥١).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق (ص: ٥٤).

لذلــك أدعو نفسي، وأدعوك أخي القــارئ إلى الاهتمام بغرس بذور محبة الله في القلــب، وتعاهدها بالأعمال الصالحة، حتى يصير الله عَزَّوَجَلَّ أحب إلينا من كل شيء: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. عند ذلك سنجد الثمار الحلوة أمامنا دون عناء أو مشقة.

ومن هذه الثمار المتوقعة:

أولًا: الرضا بالقضاء

عندما يتعرف الواحد منا على مدى حب ربه له فإن هذا من شأنه أن يدفعه دومًا إلى الــرضى بقضائه، وكيــف لا وقد أيقن أن ربه لا يريد لــه إلا الخير، وأنه ما خلقه ليعذبه، بل خلقه بيده، وكرَّمه على سائر خلقه ليدخله الجنة، دار النعيم الأبدي؛ ومن ثمَّ فإن كل قضاء يقضيه له ما هو إلا خطوة يمهد له من خلالها طريقه إلى تلك الدار، فالأقــدار المؤلمة والبلايا ما هي إلا أدوات تذكير يُذكِّر الله بها عباده بحقيقة وجودهم في الدنيا، وأنها ليســت بدار مقام بل دار امتحان، وأن عليهم الرجوع إليه قبل فوات الأوان: ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخــرف: ٤٨]، ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

وهــي كذلك أدوات تطهير من أثر الذنوب والغفلات التي يقع فيها العبد، قال رسول الله ﷺ: «**مَا يُصِيبُ الْــمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ وَلا نَصَبٍ وَلا سَقَمٍ وَلا حَزَنٍ حَتَّى الْـهَمِّ يُهَمُّهُ، إِلَّا كُفِّرَ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ**»(١).

فجميع الأقــدار التي يُقدِّرها الله عَزَّوَجَلَّ لعباده تحمل في طياتها الخير الحقيقي لهم

(١) البخاري في المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض (برقم: ٥٦٤٢)، مسلم في البر، في ثواب المؤمن فيما يصيبه (برقم: ٢٥٧٣).

وإن بدت غير ذلك.

فعلى سبيل المثال: الرزق، فالله عَزَّوَجَلَّ يبسط الرزق للبعض ويضيقه على البعض لعلمه سبحانه بما يصلح عباده، ألم يقل سبحانه: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧].

فمنعه الرزق الوفير عن بعض الناس ما هو إلا صورة من صور رحمته، وشفقته بهم. قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا، وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمْ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ تَخَافُونَهُ عَلَيْهِ**»(١).

هذه المعاني العظيمة لا يمكن تذكرها واستحضارها بصورة دائمة، وممارسة مقتضاها في الحياة العملية إلا إذا تمكن حب الله من القلب وهيمن عليه، فمفتاح: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ هو: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

إن من أهم معاني الرضا عن الله عَزَّوَجَلَّ: الرضا عن أقداره التي يسوقها للعبد، وخاصة إن كانت هذه الأقدار مؤلمة في ظاهرها، وربما لا تظهر له الحكمة منها.

فرضيت بالله ربًّا: أي رضيت به مصرفًا ومدبرًا كل أمورك، لعلمك ويقينك بأنه يحبك.. لطيف بك.. حكيم.. قدير..

ومن أهم مقتضيات هذا الرضا.. الاستسلام لأقداره، وهكذا كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

جاء في الأثر أن الله تعالى يقول: «**مَعْشَرَ الْمُتَوَجِّهِينَ إِلَيَّ بِحُبِّي مَا ضَرَّكُمْ مَا**

(١) مسند الإمام أحمد (٣٩/ ٣٣ برقم: ٢٣٦٢٢)، شرح السنة للبغوي (برقم: ٤٠٦٥)، مستدرك الحاكم (٤/ ٢٠٨)، ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (برقم: ٣٨)، البيهقي في شعب الإيمان (برقم: ١٠٤٤٨، ١٠٤٤٩).

فَاتَكُمْ مِنَ الدُّنْيَا إِذَا كُنْتُ لَكُمْ حَظًّا، وَمَا ضَرَّكُمْ حَرْبُ الخَلْقِ إِذَا كُنْتُ لَكُمْ سِلْمًا»[١].

وكان عامر بن عبد قيس يقول: «أحببت الله حبًّا سهل عليَّ كل مصيبة، ورضاني بكل قضية، فما أبالي مع حبي إياه ما أصبحت عليه وما أمسيت»[٢].

نعم -أخي- فإننا إن أحببنا الله حبًا صادقًا أحببنا كل ما يرد علينا منه سبحانه.

لما قدم سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى مكة، وقد كان كُفَّ بصره، جاءه الناس يهرعون إليه، كل واحد يسأله أن يدعو له، فيدعو لهذا ولهذا، وكان مجاب الدعوة، فأتاه عبدالله بن أبي السائب فقال له: يا عم، أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك، فرد الله عليك بصرك؟ فتبسم وقال: يا بنيَّ، قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصري.

وكان عمران بن الحصين قد استسقى بطنه، فبقي ملقى على ظهره ثلاثين سنة لا يقوم ولا يقعد، قد نقب له في سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته، فدخل عليه مطرّف وأخوه العلاء، فجعل يبكي لما يراه من حاله، فقال: لم تبكي؟ قال: لأني أراك على هذه الحالة العظيمة. قال: لا تبكِ، فإن أَحَبَّه إلى الله أحبه إليَّ[٣].

ثانيًا: التلذذ بالعبادة وسرعة المبادرة إليها

كلما ازداد حب العبد لربه ازدادت مبادرته لطاعته واستمتاعه بذكره، وكان هذا الحب سببًا في استخراج معاني الأنس والشوق إلى محبوبه الأعظم، والتعبير عنها من

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (ص: ١٠-١٩)، والمحبة لله سبحانه للإمام الجنيد (ص: ٦٠) - دار المكتبي.

(٢) استنشاق نسيم الأنس لابن رجب (ص: ٣٦).

(٣) صلاح الأمة في علو الهمة (٤/ ٥١٦).

خلال ذكره ومناجاته.

هذه المعاني ما كانت لتخرج إلا إذا فُتح لها باب الحب، فالمحب يقبل على محبوبه بسعادة، ويطيع أوامره برضى، لا تحركه لتلك الطاعة سياط الخوف من عقوبة عدم أدائه للعمل، بل يحركه ما حرك موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما قال لربه: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤] وكذلك ما جعل رسولنا ﷺ يقول لبلال: «أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلَالُ»[(١)].

إن هناك بالفعل سعادة حقيقية ومتعة وشعورًا باللذة والنعيم يجدها المحب في مناجاته وذكره وخلوته بربه، وهذا ما يُطلق عليه: «جنة الدنيا»، هذه الجنة من الصعب علينا أن ندخلها من غير باب المحبة.

قال أحد الصالحين: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها، قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله تعالى ومعرفته وذكره.

وقال آخر: إنه لتمر بي أوقات أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب[(٢)].

ثالثًا: الشوق إلى الله

عندما يتمكن حب الله من قلب العبد، فإن هذا من شانه أن يجعله دومًا حريصًا على اغتنام أية فرصة تتاح له فيها الخلوة به سبحانه وبذكره ومناجاته، وجمع قلبه معه، وشيئًا فشيئًا تستثار كوامن الشوق إليه سبحانه، وتستبد بالقلب، وتلح عليه في طلب رؤيته، ليأتي العِلم فيخبره بأنه لا رؤية ولا لقاء لله في الحياة الدنيا، بل بعد الموت،

(١) رواه أبو داود في الأدب، باب في صلاة العتمة (برقم: ٤٩٨٥، ٤٩٨٦)، والطبراني في المعجم الكبير (٦/ ٢٧٧ برقم: ٦٢١٥).

(٢) الوابل الصيب (ص: ٩٧).

فيزداد الشوق إلى هذا اللقاء، وأي لقاء!

لقاء المحبوب الأعظم الذي ناجاه لسنوات طويلة، وسكب الدمع في محرابه.

لقاء من دعاه في أوقات عصيبة فوجده منه قريبًا، ولدعائه مجيبًا.

لقاء من كفاه وحماه وأعانه على نفسه وعدوه.

لقاء من أعطاه وأكرمه وحفظه ورعاه وبكل بلاء حسن أبلاه.

يقول الحسن البصري: إن أحباء الله هم الذين ورثوا الحياة الطيبة وذاقوا نعيمها بما وصلوا إليه من مناجاة حبيبهم، وبما وجدوا من حلاوة في قلوبهم، لاسيما إذا خطر على بالهم ذكر مشافهته وكشف ستور الحجب عنه في المقام الأمين والسرور، وأراهم جلاله وأسمعهم لذة كلامه، ورد عليهم جواب ما ناجوه به أيام حياتهم[١].

فالشوق إلى الله - إذن - ثمرة من ثمار تمكُّن حبه في قلب العبد، ويؤكد ابن رجب على ذلك بقوله:

الشوق إلى الله درجة عالية رفيعة تنشأ من قوة محبة الله عَزَّوَجَلَّ، وقد كان ﷺ يسأل الله هذه الدرجة[٢].

ففي دعائه ﷺ: «**اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الرِّضَى بَعْدَ الْقَضَاءِ وَبَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْـمَوْتِ وَلَذَّةَ النَّظَرِ فِي وَجْهِكَ الْكَرِيمِ وَشَوْقًا إِلَى لِقَائِكَ مِنْ غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ**»[٣] فهو ﷺ يسأل ربه الشوق إلى لقائه دون وجود أسباب ضاغطة عليه تدعوه لذلك

(١) شرح حديث لبيك اللهم لبيك لابن رجب (ص: ٨٩) - دار عالم الفوائد.

(٢) استنشاق نسيم الأنس (ص: ٩٣).

(٣) الطبراني في الأوسط (برقم: ٦٠٧٨) وفي الكبير (١٨/ ٣١٩ برقم: ٨٢٥)، وابن أبي عاصم، في السنة (برقم: ٤٢٧).

مثل: ضراء الدنيا وأقدارها المؤلمة، أو الفتن في الدين المضلة، أو بمعنى آخر أن يكون الشوق إلى الله ناشئًا عن المحبة بالأساس.

جاء في الأثر أن الله تبارك وتعالى يقول:

«أَلَا قَدْ طَالَ شَوقُ الأَبْرَارِ إِلَى لِقَائِيَ، وَإِنِّي إِلَيْهِمْ لَأَشَدُّ شَوْقًا، وَمَا شَوقُ المُشْتَاقِينَ إِلَيَّ إِلَّا بِفَضْلِ شَوْقِي إِلَيْهِمْ. أَلَا مَنْ طَلَبَنِي وَجَدْنِي، وَمَنْ طَلَبَ غَيرِي لَمْ يَجْدْنِي، مَنْ ذَا الَّذِي أَقْبَلَ عَلَيَّ فَلَمْ أُقْبِلْ عَلَيْهِ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي دَعَانِي فَلَمْ أُجِبْهُ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي سَأَلَنِي فَلَمْ أُعْطِهِ»[1].

رابعًا: التضحية من أجله والجهاد في سبيله

المحبة الصادقة لله عَزَّوَجَلَّ تدفع صاحبها لبذل كل ما يملكه من أجل نيل رضا محبوبه، وليس ذلك فحسب بل إنه يفعل ذلك بسعادة، وكل ما يتمناه أن تحوز هذه التضحية على رضاه.

تأمل معي ما حدث من عبد الله بن جحش ليلة غزوة أحد عندما قال لسعد بن أبي وقاص: ألا تأتي ندعو الله تعالى، فَخَلَوا في ناحية، فدعا سعد، فقال: يا رب إذا لقينا العدو غدًا فَلَقِّني رجلًا شديدًا بأسه، شديدًا حرده، أقاتله ويقاتلني، ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله فآخذ سلبه، فأمَّن عبد الله، ثم قال: اللهم ارزقني غدًا رجلًا شديدًا بأسُه، شديدًا حردُه، أقاتله ويقاتلني، ثم يأخذني، فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غدًا قلت لي: يا عبد الله فيمَ جُدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك، فتقول: صدقت.

---

(١) المحبة لله سبحانه للجنيد (ص: ١١١).

قال سعد: كانت دعوته خيرًا من دعوتي، فلقد رأيته آخر النهار، وإن أنفه وأذنه لمعلق في خيط[١].

وفي يوم من الأيام رأى رسول الله ﷺ مصعب بن عمير يمشي وعليه إهاب كبش قد تمنطق به، فقال النبي ﷺ: «**انْظُرُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي قَدْ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ، لَقَدْ رَأَيْتُهُ بَيْنَ أَبَوَيْنِ يُغَذِّوَانِهِ بِأَطْيَبِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَدَعَاهُ حُبُّ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى مَا تَرَوْنَ**»[٢].

فالتضحية والجهاد من أعظم دلائل المحبة.

خامسًا: الرجاء والطمع فيما عند الله

فكلما اشتد الحب اشتد الرجاء في الله وحسن الظن فيه ألَّا يلقي حبيبه في النار، فالمحب لا يعذب حبيبه كما جاء الرد الإلهي على اليهود عندما قالوا: ﴿**نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ**﴾ [المائدة: ١٨].

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**وَاللهِ لَا يُلْقِي اللهُ حَبِيبَهُ فِي النَّارِ**»[٣].

مرض أعرابي فقيل له: إنك تموت. قال: وأين أذهب؟ قالوا: إلى الله. قال: فما كراهتي أن أذهب إلى من لا أرى الخير إلا منه[٤].

وكان سفيان الثوري يقول: «ما أُحب أن حسابي جُعلَ إلى والديَّ، ربي خير لي

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ١١٢).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٠٨).

(٣) الحاكم في المستدرك عن أنس، كتاب البر والصلة، باب من عال جاريتين حتى تدركا دخل الجنة أنا وهو كهاتين، (ص: ٤/ ١٩٥ برقم: ٧٣٤٧).

(٤) حسن الظن بالله لابن أبي الدنيا (برقم: ٤٠).

من والديَّ»[١].

وقال ابن المبارك: «أتيت سفيان الثوري عشية عرفة وهو جاثٍ على ركبته وعيناه تهملان فبكيت، فالتفت إلي فقال: ما شأنك؟ فقلت: من أسوأ أهل الجمع حالًا؟ قال: الذي يظن أن الله لا يغفر له»[٢].

سادسًا: الحياء من الله

فالمحب الصادق في حبه لله عَزَّوَجَلَّ يستحي أن يراه حبيبه في وضع شائن، أو مكان لا يحب أن يراه فيه، فإذا ما وقع في معصية أو تقصير سارع بالاعتذار إليه واسترضائه بشتى الطرق.

بل إن أي بلاء يتعرض إليه يجعله قلقًا بأن يكون هذا البلاء مظهرًا من مظاهر عتب الله له وغضبه عليه؛ لذلك تجده حينئذٍ يهرع إلى مولاه يسترضيه ويتذلل إليه ويستغفره، ويطلب منه العفو والصفح.

ويتجلى هذا الأمر جيدًا في دعاء رسولنا ﷺ بعد أحداث الطائف وما تعرض فيها من استهزاء وتضييق وإيذاء، فكان مما قاله لربه «... **إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلَا أُبَالِي، غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَنْ يَحِلَّ عَلَيَّ غَضَبُكَ أَوْ أَنْ يَنْزِلَ بِي سَخَطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى،**[٣] **وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِكَ**»[٤].

---

(١) المصدر السابق (برقم: ٢٧).

(٢) المصدر السابق (برقم: ٧٧).

(٣) لك أن تعاتبني حتى ترضى.. وهي الرجوع إلى ما يُرضي العاتب ويسره.

(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٢٨).

وفي هذا المعنى يقول ابن رجب: إن محبة الله إذا صدقت أوجبت محبة طاعته وامتثالها، وبغض معصيته واجتنابها، وقد يقع المحب أحيانًا في تفريط في بعض المأمورات، وارتكاب بعض المحظورات، ثم يرجع إلى نفسه بالملامة، وينزع عن ذلك، ويتداركه بالتوبة[١].

سابعًا: الشفقة على الخلق

من الثمار العظيمة للحب الصادق تلك الشفقة التي يجدها المحب في قلبه تجاه الناس جميعًا بخاصة العصاة منهم، وكيف لا وقد علم أنه ما من أحد من البشر إلا وفيه نفخة علوية كرَّمه الله بها على سائر خلقه، وأن الذي يرضيه -سبحانه- هو عودة الجميع إليه ودخولهم الجنة؛ لذلك تجد هذا المحب شفيقًا على الخلق، حريصًا على دعوتهم لسان حاله يقول: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف: ٥٩].

.. يستخدم في ذلك كل الطرق والوسائل الممكنة، ولا يرتاح له بال حتى يُعيد الشاردين إلى حظيرة العبودية لربهم.

وغالبًا ما تجده يقابل بالصد وربما التكذيب، أو العنت، وضعف الثمرة مقابل ما يبذله من جهد ومع ذلك لا يمل من دعوة الخلق إلى ربهم يدفعه إلى ذلك حبه سبحانه.

ومن الأمثلة العظيمة التي تبين تلك الشفقة على العصاة ما فعله مؤمن آل فرعون مع قومه، تأمل أقواله الذي جاء ذكرها في سورة غافر: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٣٨]. ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ [غافر:٣٠]،

(١) استنشاق نسيم الأنس لابن رجب (ص: ٣٧).

﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [غافر:٤١].

﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ [غافر:٤٢].

هـذه الثمرة العظيمة من ثمار المحبة من شـأنها أن تجعلنا نقـوم بتعديل خطابنا الدعوي، فنستوعب الجميع ونبشرهم ونطمئنهم تجاه ربهم قبل تخويفهم وترهيبهم.

ثامنًا: الغيرة لله

عندما يستبد حب الله في قلب العبد فإن هذا من شأنه أن يجعله يغار لمولاه، وعلى محارمه أن تنتهك، وحدوده أن تُتجاوز، وأوامره أن تخالف.

فمع شفقته على العصاة، إلَّا أن هذا لا يمنعه من بغضه لتصرفاتهم التي تغضب ربه، ولو كانت من أقرب الناس إليـه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

لقد علم المحب الصـادق أن محبوبه الأعظم يحب عباده، ويحب من يحببهم فيه، ويعيدهم إليه، وفي الوقت نفسـه فإنه سـبحانه لا يحب تصرفاتهم المخالفة لأوامره، المنافية لصفة العبودية التي ينبغي أن يتصفوا بها: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر:٧]، فهو لا يحب الكفر، ولا يحب الظلم، ولا الطغيان، ولا الكبر، ولا الفسق؛ لذلك ترى المحب لله يجمع بين الأمرين: الشفقة على الخلق، وحب الخير لهم من جانب، وبغضه لتصرفاتهم التي لا تـرضي مولاه، ونهيهم عنها، بل ومحاربتهم عليها إن تطلب الأمر من جانب آخر.

ومن لوازم هذه الغيرة: الغيرة على رسـوله، وكيف لا وهو أحب الخلق إلى الله،

فلو كانت المحبة لله صادقة لتبعتها ولازمتها محبة رسوله والغيرة عليه، ولقد تمثل هذا الأمر في الصحابة جيدًا، ولعل ما حدث لخُبيب بن عدي ما يؤكد ذلك، فقد تم أسره في يـوم الرجيع، وصُلِب لكـي يُقتل، وقبل قتله قال المشركـون له: أتحب أن محمدًا مكانك؟ فقال: لا والله العظيم. ما أحب أن يفدِيني بشوكة يُشاكها في قدمه[1].

تاسعًا: الغنى بالله

ومع كل الثمار السـابقة تأتي أهم ثمرة للمحبة ألا وهي الاستغناء بالله سبحانه وتعالى، والاكتفاء به: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣].

فينعكس ذلك عـلى تعاملات العبد مـع الأحداث التي تمر بـه، فإن ادلهمت الخطوب استشـعر معية الله لـه: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠]، وإن تشابكت أمامه الأمور تذكر فردد في نفسه: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

.. شعاره الدائم: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ [النساء: ١٣٢].

يتغنى بمثل قول الشاعر:

فليتـك تحلـو والحيـاة مريـرة ... وليتك ترضى والأنـام غضاب
وليـت الذي بينـي وبينك عامر ... وبينـي وبـين العالمـين خراب
إذا صـح منك الـود فالكل هين ... وكل الذي فوق الـتراب تراب

قال الجنيـد: «قد أوجب الله لأهل محبتـه الصنع والتوفيـق في جميع أحوالهم، فأورثهم الغنى، وسـدَّ عنهم طلب الحاجات إلى الخلـق، تأتيهم ألطاف من الله من

(١) حياة الصحابة للكاندهلوي (١/ ٤٠٠).

حيث لا يحتسبون، وقام لهم بما يكتفون، ونزَّه أنفسهم عما سوى ذلك، إكرامًا لهم عن فضول الدنيا، وطهارة لقلوبهم من كل دنس، وأمشاهم في طرقات الدنيا طيبين، وقد رفع أبصار قلوبهم إليه، فهم ينظرون إليه بتلك القلوب غير محجوبة عنه»[1].

(١) المحبة لله سبحانه (ص: ٨٤).

الفصل الثاني

لماذا يحب الله عباده؟

النفخة العلوية

العلاقة بين الله عَزَّوَجَلَّ وبين عباده من بني آدم تختلف عن علاقته سبحانه بجميع خلقه، وكيف لا وما من مخلوق من البشر إلَّا وفيه نفخة علوية من روح الله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧١، ٧٢].

نعم، هذه النفخة ليســت جزءًا من ذات الله -كما ادعت النصارى- بل هي من ملكه[١] وأمره، اختص بها سبحانه الإنسان وميزه عن سائر مخلوقاته، وجعلها مرحلة مهمة وأساســية ومميزة في خلقه: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:٢٩] بينما لم يُذكر ذلك في حق أي مخلوق آخر.

ومما يؤكد هذا الأمر قوله تعالى لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

وفي هــذا المعنى يقول صاحب الظلال: «ولأن الله عَزَّوَجَلَّ خالق كل شيء، فلا بد

(١) يقول عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني: والإضافة في (روحي) ليست على معنى أنها جزء من روح ذات الله سبحانه وتعالى، بل هي على معنى الملك، كما أن كل شيء في السماوات والأرض، وما بينهما ملك لله، فلله ما في السماوات والأرض، وهذا التعبير نظير التعبير في (سمائي، وأرضي، وجنتي، وناري) أو على معنى الاختصاص بأمر من أموري، مثل «وطهر بيتي للطائفين» وبسبب الفهم الخطأ في هذه الإضافة سقط النصارى في توهم أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ جزء من ذات الله، سبحانه وتعالى عما يصفون، انظر تفسير معارج التفكر ودقائق التدبر الجزء الثالث (ص: ٢٦٧).

أن تكون هناك خصوصية في خلق هذا الإنسان تستحق هذا التنويه، هي خصوصية العناية الربانية بهذا الكائن، وإيداعه نفخة من روح الله دلالة على هذه العناية»[١].

ويقول رحمه الله: «وما كان هذا الكائن الصغير الحجم، المحدود القوة، القصير الأجل، المحدود المعرفة، ما كان له أن ينال شيئًا من هذه الكرامة لولا تلك اللطيفة الربانية الكريمة، وإلا فماذا يبلغ هذا الإنسان لتسجد له ملائكة الرحمن، إلا بهذا السر اللطيف العظيم؟!»[٢].

تكريم الإنسان

وليس أدل على خصوصية العناية الربانية بالإنسان من هذا التكريم الذي شمله منذ بدء خلق أبيه آدم وسجود الملائكة له: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤]. مرورًا بالصورة الحسنة التي خُلق عليها: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

وتميزه بنعمة العقل الذي يُعد بمثابة وِعاء للعلم والإدراك والتمييز بين الخير والشر والنافع والضار.

ومن مظاهر هذا التكريم كذلك: تسخير الكون كله لخدمته: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

هذا التكريم يشمل جميع بني آدم دون تفرقة بين لون أو جنس أو عرق: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

---

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٣٠٢٨).

(٢) في ظلال القرآن (٥/ ٣١٢٩).

أليست نفسًا؟!

إن النفخة العلوية التي يحملها الإنسان تجعله دومًا موضعًا للتكريم ولو كان من الكافرين.

وإليك -أخي القارئ- هذا الخبر الصحيح الذي يؤكد لنا جميعًا هذا المعنى:

كان سهل بن حنيف وقيس بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قاعديْن بالقادسية فمروا عليهما بجنازة فقاما، فقيل لهما: إنها من أهل الأرض، أي من أهل الذمة، فقالا: «**إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّتْ بِهِ جِنَازَةٌ فَقَامَ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهَا جِنَازَةُ يَهُودِيٍّ، فَقَالَ: «أَلَيْسَتْ نَفْسًا»؟**»[(١)].

وليس هذا فحسب بل إننا نجد الشريعة الإسلامية توجه المسلمين إلى حُسن التعامل مع جميع الناس في السلم والحرب، ومن ذلك النهي عن التمثيل بالقتلى في الحرب، وكان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميرًا على جيش أو سرية يوصيه، فكان مما يقول له: «**لَا تُمَثِّلُوا**»[(٢)]، وفي الحديث القدسي: «**لَا تُمَثِّلُوا بِعِبَادِي**»[(٣)].

وكذلك حصر القتل فيمن يقاتل دون غيره: ﴿ **وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ** ﴾ [البقرة: ١٩٠]. فلا قتل لامرأة أو صبي أو أجير أو راهب في صومعته، فإن انتهت الحرب وكان هناك أسرى

---

(١) البخاري في الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي (برقم: ١٣١٣) مسلم في الجنائز، باب القيام للجنازة (برقم: ٩٦١) النسائي في الجنائز، باب القيام لجنازة أهل الشرك (برقم:١٩٢١).

(٢) في النسائي عن عبدالله بن جعفر في الضحايا، باب النهي عن المجّمة بغير حقها (برقم: ٤٤٤٠) «مر رسول الله ﷺ على ناس وهم يرمون كبشًا بالنبل فكره ذلك وقال: **لا تمثلوا بالبهائم**».

(٣) مسند الإمام أحمد (٢٩/ ٩٩ برقم: ١٧٥٥٧، ٢٩/ ١٠٩ برقم: ١٧٥٦٨) الطبراني في الكبير (٢٢/ ٦٩٧).

فلا إهانة ولا إذلال بل احترام لإنسانيتهم: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

وعندما أسر المسلمون من المشركين يوم بدر، كانت وصية الرسول ﷺ بهم كبيرة، فقال لأصحابه: «**اسْتَوْصُوا بِهِمْ خَيْرًا**»(١).

والجدير بالذكر في هذا المقام أن في تعاملنا مع كل بني آدم من العصاة ولو كانوا كفارًا ملحدين فإننا لا نبغضهم لذواتهم بل نبغض أفعالهم التي يبغضها الله عَزَّوَجَلَّ.

تقرب الملائكة إلى الله بالدعاء للبشر

لقد اختص الله عَزَّوَجَلَّ الإنسان لنفسه من بين سائر مخلوقاته كما جاء في الأثر: «**يَا ابْنَ آدَمَ خَلَقْتُ كُلَّ شَيْءٍ لَكَ وَخَلَقْتُكَ لِنَفْسِي، فَلَا تَشْتَغِلَ بِمَا خَلَقْتُهُ لَكَ عَمَّا خَلَقْتُكَ لَهُ**»(٢).

اختصه ليقوم بمهمة عظيمة ألا وهي عبادته سبحانه بالغيب في ظل تمتعه بخاصية حرية الاختيار، ووجود نفس أمارة بالسوء، وشيطان يوسوس، ودنيا تتزين.

وإن كانت العلاقة بين الأب وأبنائه تتسم بالحب والحنان والرحمة والحرص الدائم على مصلحتهم، فإن علاقته سبحانه بالبشر أسمى وأسمى، إنها علاقة الرب بعباده الذين أوجدهم من العدم ونفخ فيهم من روحه.

---

(١) انظر مجلة الوعي الإسلامي عدد (٤٩٤)، مقال بعنوان (حفظ الإسلام للكرامة الإنسانية) د. إبراهيم أحمد مهنا، والحديث في السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٤٧٥).

(٢) أورده الحافظ ابن رجب في شرح حديث «إن أغبط أوليائي عندي» - انظر مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي (٢/ ٧٤٩).

علاقة الخالق بالمخلوق الذي اختصه لنفسه فهو يحبه ويريد له الخير، والنجاح في مهمته العظيمة.

ومن عجب أن الملائكة الأطهار الكرام لما علمت بمنزلة البشر عند الله جعلت جزءًا من عبادتها دعاءها لهم، وهي بذلك تريد التقرب إليه سبحانه وتطمع في نيل رضاه: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥].

ويزداد تقربهم وتوددهم إليه سبحانه بكثرة الدعاء لمن لهم حب خاص وولاية خاصة عنده: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ [غافر: ٧- ٩].

ويزداد ويزداد لأحب الخلق إليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

مباهاته بعباده

ومما يؤكد علاقته -سبحانه- الخاصة بعباده البشر الموحدين له: مباهاته بهم الملائكة عند قيامهم بطاعته.

خرج رسول الله ﷺ يومًا على حلقة من أصحابه فقال: «**مَا أَجْلَسَكُمْ؟**» قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ، وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا، قَالَ: «**آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ**

إِلَّا ذَاكَ؟» قَالُوا: وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ، قَالَ: «**أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي، أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمُ الْـمَلَائِكَةَ**»(١).

وانظر إليه ﷺ وهو يحدث أصحابه عن صورة أخرى من صور هذه المباهاة فيقول: «**إِنَّ اللهَ يُبَاهِي بِأَهْلِ عَرَفَاتٍ أَهْلَ السَّمَاءِ فَيَقُولُ لَهُمُ: انْظُرُوا إِلَى عِبَادِي جَاءُونِي شُعْثًا غُبْرًا**»(٢).

مع أنه سبحانه -يقينًا- لا تنفعه طاعة الطائعين مهما بلغت، ولا تضره معصية العاصين مهما عظمت، وما مباهاته وفرحه بطاعات عباده إلا لأنه يحبهم ويريد لهم الخير.

وما إخبارهم بتلك المباهاة في أكثر من موضع على لسان رسول الله ﷺ إلا رسالة حب منه لهم لعلها تزيدهم إقبالًا عليه وحبًّا له وشوقًا إلى لقائه.

ضحكه سبحانه

ومن مظاهر العلاقة المميَّزة بين الله تعالى وعباده وبخاصة الطائعين منهم: ضحكه سبحانه عندما يرى عباده يخلصون أعمالهم له، ويضحون من أجله.

عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللهُ وَيَضْحَكُ إِلَيْهِمْ وَيَسْتَبْشِرُ بِهِمُ: الَّذِي إِذَا انْكَشَفَتْ فِئَةٌ قَاتَلَ وَرَاءَهَا بِنَفْسِهِ لِلهِ تَعَالَى فَإِمَّا أَنْ يُقْتَلَ وَإِمَّا أَنْ**

(١) مسلم في الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر (برقم: ٢٧٠١)، الترمذي في الدعوات، باب القوم يجلسون فيذكرون الله ما لهم من الفضل (برقم: ٣٣٧٩)، النسائي في القضاة، باب كيف يستحلف الحاكم (برقم: ٥٤٣٦).

(٢) الحاكم، كتاب المناسك، باب إن الله يباهي بأهل عرفات أهل السماء (١/ ٤٦٥)، وابن حبان، كتاب الحج، باب ذكر مباهاة الله جل وعلا ملائكته بالحاج عند وقوفهم بعرفة (٩/ ١٦٣ برقم: ٣٨٥٢)، وابن خزيمة (برقم: ٢٨٣٩).

يَنْـصُرَهُ اللهُ وَيَكْفِيَهُ، فَيَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي هَذَا كَيْفَ صَبَرَ لِي بِنَفْسِـهِ!؟ وَالَّذِي لَهُ امْرَأَةٌ حَسَـنَةٌ وَفِرَاشٌ لَيِّنٌ حَسَـنٌ فَيَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ يَذَرُ شَهْوَتَهُ وَيَذْكُرُنِي وَلَوْ شَاءَ رَقَدَ، وَالَّذِي إِذَا كَانَ فِي سَـفَرٍ وَكَانَ مَعَهُ رَكْبٌ فَسَهِرُوا ثُمَّ هَجَعُوا فَقَامَ مِنَ السَّحَرِ فِي ضَرَّاءَ سِرًّا»(١).

ومما يؤكد هذا المعنى قوله ﷺ: «**يَعْجَبُ رَبُّكَ مِنْ رَاعِي غَنَمٍ فِي رَأْسِ شَـظِيَّةِ الْـجَبَلِ يُؤَذِّنُ بِالصَّلَاةِ وَيُصَلِّي، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي هَذَا يُؤَذِّنُ وَيُقِيمُ الصَّلَاةَ يَخَافُ مِنِّي، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي وَأَدْخَلْتُهُ الْـجَنَّةَ**»(٢).

قدْر المؤمن عند الله

إن الجسـد الذي خلقه الله عَزَّوَجَلَّ ونفخ فيه نفخة علويـة له حرمة عظيمة عنده سبحانه ويكفيك في ذلك قوله تعالى: ﴿**أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا**﴾ [المائدة: ٣٢].

وهذا يؤكد مكانة الإنسـان الخاصة عند الله عَزَّوَجَلَّ، وتزداد هذه المكانة كلما كان الإنسـان أطوع لله عَزَّوَجَلَّ، قال ﷺ: «**لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَـلَى اللهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ**»(٣).

---

(١) مجمع الزوائد (٥/ ٦٥٢ برقم: ٣٥٧٧)، والحاكم (١/ ٢٥).

(٢) أبو داود في الصلاة، باب الأذان في السفر (برقم: ١٢٠٣)، النسائي في الأذان، باب الأذان لمن يصلي وحده (برقم: ٦٦٦).

(٣) الترمذي في الديات، باب ما جاء في تشديد قتل المؤمن (برقم: ١٣٩٥) النسائي في تحريم الدم، باب تعظيم الدم (برقم: ٣٩٨٧)، ابن ماجه في الديات، باب التغليظ في قتل المسلم ظلمًا (برقم: ٢٦١٩).

يكره سبحانه مساءة عبده المؤمن

تأمل معي -أخي القارئ- قول الله عَزَّوَجَلَّ في الحديث القدسي:

«وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»(١).

يعلق ابن تيمية على ذلك فيقول: «فبيَّن سبحانه أنه يتردد (عن قبض نفس عبده المؤمن)؛ لأن التردد تعارض إرادتين، وهو سبحانه يحب ما يحبه عبده، ويكره ما يكرهه، وهو يكره الموت فهو يكرهه كما قال (وأنا أكره مساءته) وهو سبحانه قد قضى بالموت، فهو يريد له أن يموت، فسمى ذلك ترددًا، ثم بين أنه لا بد من وقوع ذلك(٢).

فرحه -سبحانه- بتوبة العاصين

أرأيت لو أن ابنًا قد شرد بعيدًا عن أبيه، وسار في طريق الفساد، ثم عاد إلى رشده وارتمى في حضن أبيه، أي فرحة يكون عليها الأب في هذا الوقت؟!

هذه الفرحة لا تساوي شيئًا بجوار فرحته سبحانه بتوبة عبدٍ من عباده مهما أسرف في ذنبه ولجَّ في طغيانه.

تأمل معي الحديث الذي يؤكد فيه ﷺ هذا المعنى بقوله:

«وَاللهِ للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ كَانَ فِي سَفَرٍ فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَآوَى إِلَى ظِلِّ شَجَرَةٍ، فَنَامَ تَحْتَهَا، فَاسْتَيْقَظَ، فَلَمْ يَجِدْ رَاحِلَتَهُ، فَأَتَى شَرَفًا، فَصَعِدَ عَلَيْهِ،

(١) البخاري في الرقاق باب التواضع (برقم: ٦٥٠٢).
(٢) التحفة العراقية (٤٣).

فَأَشْرَفَ، فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، ثُمَّ أَتَى آخَرَ، فَأَشْرَفَ، فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، فَقَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، فَأَكُونُ فِيهِ حَتَّى أَمُوتَ فَذَهَبَ، فَإِذَا بِرَاحِلَتِهِ تَجُرُّ خِطَامَهَا، فَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ»(١).

مراده أن تدخل الجنة

عندما يقرأ المرء الأخبار السابقة، وبخاصة ما يتعلق بفرح الله عَزَّوَجَلَّ العظيم بتوبة عبد من عباده، فمن المتوقع أن تقفز إلى الذهن بعض التساؤلات عن أسباب هذا الفرح، فالله عَزَّوَجَلَّ لا تنفعه هذه التوبة بشيء، فهو الغني الحميد، فلماذا هذه الفرحة إذن؟

من السهل علينا أن ندرك سر هذا الفرح عندما نتذكر أن الله عَزَّوَجَلَّ اختص الإنسان لنفسه دون خلقه جميعًا، وأنه يريد منه أن ينجح في امتحان العبودية ليُدخله الجنة، فمراده سبحانه من جميع البشر دخول جنته: ﴿**وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ**﴾ [البقرة: ٢٢١].

مراده أن يعود الجميع إليه ليكرمهم وينعمهم في دار أعدَّها خصيصًا لهم، وجعل لكل منهم فيها جزءًا مقسومًا، وهو سبحانه يريد لكل منهم أن ينال نصيبه في تلك الدار، ويتبوأ منزله فيها: ﴿**وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ**﴾ [يونس: ٢٥] وفي الوقت نفسه فهو لا يريد أن يُدخل أحدًا من عباده النار: ﴿**وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ**﴾ [الزمر: ٧].

---

(١) البخاري في الدعوات، باب التوبة (برقم: ٦٣٠٨)، مسلم في التوبة، باب في الحض على التوبة (برقم: ٢٧٤٤) الترمذي في صفة القيامة، باب المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه (برقم: ٢٤٩٧، ٢٤٩٨)، وانظر روايات الحديث كلها في جامع الأصول الكتاب الرابع في التوبة.

هذا الأمر ينطبق على جميع البشر في مشارق الأرض ومغاربها، وفي كل العصور والأزمان.. عُبَّاد الصليب.. عبَّاد البقر.. الملحدين والوثنيين.. كل هؤلاء يريد الله منهم أن يدخلوا الجنة، ويكفيك في هذا أنه سبحانه وتعالى يمهل هؤلاء وغيرهم من الكافرين، ويعطيهم الفرصة تلو الفرصة -يطعمهم ويسقيهم ويرزقهم- مع قدرته المطلقة عليهم وإحاطته التامة بهم، فلو شاء أن يهلكهم لأي ذنب يفعلونه لأهلكهم، لكنه لا يفعل، بل يحلم ويصبر ويمهل لعلهم ينتبهون من غفلتهم.

معنى ذلك أنه ما من واحد يدخل النار إلا لأنه يأبى ويصر على ألا يدخل الجنة كما قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ أَبَى**»(١).

نعم، هذه هي الحقيقة التي يغفل عنها البشر «**أَلَا كُلُّكُمْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ شَرَدَ عَلَى اللهِ شِرَادَ الْبَعِيرِ عَلَى أَهْلِهِ**»(٢).

ومثال ذلك ما حدث لأصحاب القرية التي كذبت الرسل فأصابهم العذاب بعد طول إمهال ليأتي التعقيب القرآني ليؤكد أنهم هم الذين أبوا إلا العذاب: ﴿**يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ**﴾ [يس:٣٠].

أحب العباد إلى الله

وأهم صور الإباء والإصرار على عدم دخول الجنة عدم الاعتراف بالله، ربًّا وخالقًا ورازقًا، وإلهًا معبودًا، أو إشراك أحد معه في ذلك.

فالشرك أو الكفر ظلم عظيم يظلم فيه العبد الحقيقة العظمى، حقيقة التوحيد

(١) البخاري في الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (برقم: ٧٢٨٠).

(٢) مسند أحمد (٣٦/ ٥٦٠ برقم: ٢٢٢٢٦)، ومجمع الزوائد (١٩/ ٧٨٠ برقم: ١٦٦٨٦، ١٦٦٨٧، ١٦٦٨٨).

التي قامت عليها السماوات والأرض؛ ومن ثَم يهون على الله هوانًا عظيمًا، فيرتد إلى أسفل السافلين، ومع ذلك يظل الباب مفتوحًا للجميع للتوبة والعودة إليه سبحانه قبل فوات الأوان، بل إنه سبحانه وتعالى جعل أحب خلقه إليه من يُحبب الناس فيه، ويدعوهم للعودة إليه وإلى طاعته كي يدخلهم الجنة.

عن الحسن، قال: إن رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لئن شئتم لأقسمن لكم بالله، أنَّ أحب عباد الله الذين يحببون الله إلى عباده، ويسعون في الأرض بالنصيحة»، وقيل إن هذا الصحابي هو أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1].

فالله عَزَّوَجَلَّ يبغض الشرك والكفر الذي تلبَّس بالمشركين الكفار، ولكنه سبحانه يريد أن يتوب عليهم، ويدخلهم الجنة بينما هم يأبوْن؛ لذلك فإنه سبحانه رغَّب عباده المؤمنين بدعوة هؤلاء وتحبيبهم فيه علَّهم يفيقون من غفلتهم، ويعودون إلى ربهم.

تأمل معي قوله تعالى الذي يتفجر إشفاقًا ورحمة: ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ** ﴾ [الأنفال: ٣٨]. وتأمل كذلك قوله: ﴿ **وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ** ﴾ [التوبة: ٦].

أشد ما يغضبه

ومع فرحه سبحانه بتوبة عبد من عباده الضالين، ومع حبه الخاص لمن يُحبِّب الناس فيه، فإنه سبحانه يغضب أشد الغضب لمن يُيئس الناس من بلوغ رحمته ويُنذرهم بانقطاع الأمل، وبأنه لا مآل لهم إلا النار.

---

(١) الأولياء لابن أبي الدنيا (١/ ٢٠ برقم: ٣٦).

وما إمهال الله لعباده المقصرين والمسرفين على أنفسهم، بل والكفار والمشركين -كما أسلفنا- إلا لأنه سبحانه يُهيئ لهم من الأمور، ويرسل لهم من الرسائل ما قد يوقظهم من سباتهم، ويُذكرهم بربهم.

فإذا ما جاء شخص ما وأشعر هؤلاء بأن الله لن يغفر لهم، وأنهم مغضوبٌ عليهم، ولا أمل أمامهم، فسيؤدي ذلك إلى قنوطهم ويأسهم من رحمة الله؛ ومن ثَم زيادة تماديهم في الطغيان، وانحرافهم، وابتعادهم عن طريق الهدى، لتكون نهايتهم النار.

فإن كنت -أخي القارئ- في شك من هذا فاقرأ هذا الحديث:

عن ضَمْضَمِ بنِ جوسٍ، قال: قال أبو هريرة: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاخِيَيْنِ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ، وَالْآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ: أَقْصِرْ، فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فَقَالَ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ، أَوْ لَا يُدْخِلُكَ اللهُ الْجَنَّةَ، فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا، أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ**» قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته [(١)].

المرحلة الأخيرة

ولأنه سبحانه يريد من عباده دخول الجنة؛ فقد أتاح لهم فرصًا عظيمة للتوبة والرجوع إليه وذلك طيلة حياتهم في الدنيا، ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل وعند

(١) سنن أبي داود (٤/ ٢٧٥ برقم:٤٩٠١)، ومسند الإمام أحمد (٨/ ٢٦٧ برقم: ٨٢٧٤).

مماتهم كذلك ما داموا أنهم لم يهتكوا الستر بالكفر أو الشرك، فقد أعطى عباده الموحدين أشياء تساعدهم على محو السيئات وزيادة الحسنات.

ومن ذلك أنه تصدق عليهم بثلث أموالهم التي يتركونها كوصية يتصرفون فيها كيفما شاءوا، فإن كان المال الذي بحوزتهم سيئول إلى ورثتهم، إلا أن لهم أن يوصوا بثلثه فيما يريدونه من أبواب الخير.

قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَصَدَّقَ عَلَيْكُمْ، عِنْدَ وَفَاتِكُمْ، بِثُلُثِ أَمْوَالِكُمْ، زِيَادَةً لَكُمْ فِي أَعْمَالِكُمْ**»(١).

وحث سبحانه عباده المسلمين -على لسان رسوله ﷺ- الصلاة على الميت ليكون دعاؤهم سببًا من أسباب تكفير سيئاته، ورفع درجاته وإنزال الرحمة عليه.

قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ صَلَّى عَلَى جَنَازَةٍ وَلَمْ يَتْبَعْهَا فَلَهُ قِيرَاطٌ، فَإِنْ تَبِعَهَا فَلَهُ قِيرَاطَانِ**»، قِيلَ: وَمَا الْقِيرَاطَانِ؟ قَالَ: «**أَصْغَرُهُمَا مِثْلُ أُحُدٍ**»(٢).

وحثهم على الدعاء له بالتثبيت عند دفنه: «**اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَسَلُوا لَهُ بِالتَّثْبِيتِ، فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ**»(٣).

وليس هذا فحسب، بل جعل هناك أعمالًا يجري على المسلم ثوابها بعد موته كدعاء الولد الصالح، والعلم النافع، والصدقة الجارية.

قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ عِلْمًا**

---

(١) سنن ابن ماجه (٢/ ٩٠٤ برقم: ٢٧٠٩)، والمعجم الكبير للطبراني (٤/ ١٩٨ برقم: ٤١٢٩).

(٢) البخاري في الجنائز، باب من انتظر حتى تدفن (برقم: ١٣٢٥) مسلم في الجنائز، باب فضل الصلاة على الجنازة وتشييعها (برقم: ٣١٦٨، ٣١٦٩).

(٣) أبو داود في الجنائز، باب الاستغفار عند القبر للميت (برقم: ٣٢٢١).

عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ، وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ، وَمُصْحَفًا وَرَّثَهُ، أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ، أَوْ بَيْتًا لِابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ، أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ، أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ، يَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ»[1].

أهل المظالم

وإن أردت أن تتأكد -أخي القارئ- أكثر وأكثر بأن مراد الله عَزَّوَجَلَّ هو دخول جميع عباده الموحدين الجنة فاقرأ هذا الحديث:

عن أنس بن مالك قال: بينما النبي ﷺ جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدَت نواجذُه فقال عمر: ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟

قال: «**رَجُلَانِ مِنْ أُمَّتِي جَثَيَا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ الْعِزَّةِ عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ أَحَدُهُمَا: يَا رَبِّ، خُذْ لِي مَظْلَمَتِي مِنْ أَخِي قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَعْطِ أَخَاكَ مَظْلَمَتَهُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، لَمْ يَبْقَ مِنْ حَسَنَاتِي شَيْءٌ قَالَ: يَا رَبِّ، فَلْيَحْمِلْ عَنِّي مِنْ أَوْزَارِي** فَفَاضَتْ عَيْنُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْبُكَاءِ، ثُمَّ قَالَ: **إِنَّ ذَلِكَ لَيَوْمٌ عَظِيمٌ يَوْمٌ يَحْتَاجُ النَّاسُ فِيهِ إِلَى أَنْ يُحْمَلَ عَنْهُمْ مِنْ أَوْزَارِهِمْ قَالَ: فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُطَالِبِ: ارْفَعْ رَأْسَكَ فَانْظُرْ إِلَى الْجِنَانِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: يَا رَبِّ، أَرَى مَدَائِنَ مِنْ فِضَّةٍ وَقُصُورًا مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلَةً بِاللُّؤْلُؤِ لِأَيِّ نَبِيٍّ هَذَا؟ لِأَيِّ صِدِّيقٍ هَذَا؟ لِأَيِّ شَهِيدٍ هَذَا؟ قَالَ اللهُ هَذَا لِمَنْ أَعْطَانِيَ الثَّمَنَ قَالَ: يَا رَبِّ فَمَنْ يَمْلِكُ ذَلِكَ؟ قَالَ: أَنْتَ تَمْلِكُهُ، قَالَ: بِمَاذَا يَا رَبِّ؟ قَالَ: بِعَفْوِكَ عَنْ أَخِيكَ قَالَ: يَا رَبِّ، قَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: خُذْ بِيَدِ أَخِيكَ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ، ثُمَّ قَالَ** رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ ذَلِكَ: **فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ؛ فَإِنَّ اللهَ**

(١) ابن ماجه في المقدمة (برقم: ٢٤٢)، ابن خزيمة في صحيحه (٤/ ٢٤٩٠)، البيهقي في شعب الإيمان (برقم: ٣٤٤٨).

عَزَّ وَجَلَّ يُصْلِحُ بَيْنَ الْـمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[١].

فهذا يا أخي هو ربنا الذي يحبنا ويفرح بتوبتنا ويريد أن يدخلنا الجنة.

هذا هو ربنا الذي عرَّفنا بنفسه فقال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

ولماذا خلق الله النار؟!

قد يتبادر إلى الذهن سؤالٌ:

فإن كان حب الله لعباده بهذا الحد؛ فلماذا خلق الله النار؟

بل إنني أجد في القرآن آيات كثيرة جدًا تصف عذاب النار وشدته وما يلاقيه أهلها، وآيات الوعيد في القرآن كثيرة؟!

ولكي نجيب عن هذا السؤال نضرب لذلك مثالًا، سيساعدنا إن شاء الله على فهم الكثير من أفعال الله -عَزَّوَجَلَّ- معنا ومع العباد، وسيؤكد لنا أن مردَّها كله إلى حبه تعالى لنا وشفقته علينا وإرادته الخير لنا.

هب أن هناك مدرسة يديرها رجل مُعمِّر، هذا الرجل بالإضافة لكونه مدير المدرسة هو جد لجميع الطلاب الذين يدرسون فيها.

تحوي هذه المدرسة كما الحال في معظم المدارس بعض التلاميذ دائمي الشغب، لا يؤدون الواجبات، ويتأخرون عن الدوام، ولا يحترمون معلميهم ويتجاوزون معهم حدود الأدب .. و.. وغيرها من التصرفات التي تستوجب العقاب حسب

(١) الحاكم في المستدرك كتاب الأهوال، باب إذا لم يبق من الحسنات فيحمل يوم القيامة من الأوزار (٤/ ٥٧٦).

لوائح المدرسة وقوانينها.

رغم تحذير المدير المستمر لهم إلا أنهم كانوا يتعاملون مع تحذيراته باستخفاف وسخرية، أنذرهم تارة ورغبهم وحفزهم تارة، لكن كثيرًا منهم أصر على المخالفة، فاستحقوا بذلك العقوبة.

هنا حين تحق العقوبة على هؤلاء التلاميذ، فيهرع أبناء هذا الرجل المعمر إليه ليطلبوا منه إمهالهم والتجاوز عنهم، فهم يخاطبون رحمة الجد وشفقته على أحفاده.

إذًا.. ولأن هذا الرجل المعمر له صفتان:

الأولى: صفة الجد

الثانية: صفة المدير

فإيقاعه العقاب المستحق على الطلبة طبقًا للائحة كان يقوم به كمديرهم

وإمهاله لهم وصبره وحلمه عليهم كان يقوم به كجدهم

ولله المثل الأعلى، فالله عَزَّوَجَلَّ يحبنا، ويريد لنا جميعًا أن ندخل الجنة، فيمهلنا كثيرًا ويتجاوز عنا ويغفر لنا، وقد سهل لنا طريق العودة إليه كما سيأتي بيانه في الصفحات القادمة.

لكنه في ذات الوقت هو الملك الذي يدير هذا الكون، والذي ينبغي أن نتوجه له بالعبادة والخضوع والذل، ولقد وضع قوانين وسننًا أقررنا بها جميعًا في المشهد العظيم:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدْنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

فهو عندما يُدخِل أحدَ عباده النار يكون ذلك بعد إمهال طويل، وتجاوز ومغفرة

ورحمة .. يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ [فاطر: ٤٥].

فلا يعاقبهم إلا بعد أن ينذرهم ويحذرهم، ولا يتعجل عقابهم بل يؤخرهم حتى آخر لحظاتهم في الحياة قبل الغرغرة، لعلهم يتوبون أو يرجعون، فإذا ماتوا؛ استحقوا العقاب الذي وافقوا عليه بأنفسهم وأقروا به في عالم الذر.

وإذا عدت إلى مثال الجد المدير، وأخبرتك أن التلاميذ الفاسدين لم يتوقفوا عند هذا الحد، بل بدأوا بإلحاق الأذى بزملائهم، فتجمعوا يومًا على أحدهم وأبرحوه ضربًا، فشجوا رأسه وكسروا يده وامتلأ جسده بالكدمات.

فإذا علمت أن المدير عاقبهم عقابًا شديدًا وفصلهم من المدرسة، ألا تتفق معي أن شدته عليهم هي في حد ذاتها عين الرحمة بزميلهم المصاب، وبباقي التلاميذ ألَّا يصيبهم مثل ما أصابه؟

ولله المثل الأعلى فإن خلق النار، وتخويف الله لعباده منها والوعيد بها لا ينافي وده سبحانه ورحمته بل إنها من صور رحمته... رحمته بعباده المؤمنين في الدينا لكي يزجر عنهم العصاة والظالمين، ورحمته في الآخرة ألا يساوي بين من نجح في الاختبار ومن رسب فيه.

بل رحمة بالعصاة أنفسهم، فإنه سبحانه يخوفهم في الدينا حتى ينزجروا ويستقيموا، تأمل معي قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦].

تأمل ختام الآية، فمِن وُدِّه سبحانه هذا التخويف لكي نتقيه فننجوا في الآخرة.

• • •

الفصل الثالث

مظاهر حب الله تعالى لعباده

جوانب المعرفة

كأني بك -أخي القارئ- تتساءل عن الدليل العملي لهذه العلاقة المميزة بين الله سبحانه وتعالى وبين عباده البشر، بل وبينك أنت على وجه الخصوص.

لا أريدك -أخي الحبيب- أن تطلب دليلًا واحدًا، بل اطلب ما شئت من الأدلة فهي - بفضل الله - أكثر من أن تحصى، فمظاهر حب الله لعباده كثيرة كثيرة، تنتظر منا أن ننتبه إليها لنستدل من خلالها على الرب الودود سبحانه وتعالى.

كل ما هو مطلوب أن نـُعطي عقولنا الفرصة لكي تقوم بالمهمة التي خُلقت من أجلها.. مهمة التعرف على الله.

فبالتفكر في مظاهر حـــب الله لعباده، مع الاجتهاد في تجاوب المشـــاعر مع هذا التفكر ســـتزداد المعرفة بالله الودود، وستســـتولي هذه المعرفة -بإذن الله- على الجزء الأكبر من مشاعر الحب في القلب، لتظهر الثمار الطيبة لهذا الحب بصورة تلقائية ودون تكلف.

وفي الصفحات القادمة ســيتم الحديث -بعون الله- عن بعض مظاهر حب الله لعبـــاده، والمطلوب منا أن نتفكر فيها جيدًا، ونعيش معها بعقولنا ومشـــاعرنا، لعلها تساهم في إشعال جذوة حب المولى سبحانه وتعالى في قلوبنا.

وســـتلحظ -أخي القارئ- أننا في أغلبها نتوجـــه إليك بالخطاب؛ ليكون ذلك أدعى لاستشعار معانيها بصورة أقرب إلى الحقيقة والواقع.

• • •

أولًا: من مظاهر حبه
سَبْق فضله عليك قبـــل وجودك

والمقصد من سبق الفضل: أن فضل الله عَزَّوَجَلَّ علينا، وحبه لنا سبق وجودنا على الأرض.

هذا الجانب من أهم الجوانب التي من شأنها أن تؤجج مشاعر الحب داخل القلب، وكيف لا؟! ومن خلاله يكتشف الواحد منا مدى حب ربه له دون أي سبب منه.

فهيا بنا -أخي القارئ- نعش في أجواء هذ المظهر:

سبق الفضل في التكريم

شاء الله عَزَّوَجَلَّ أن يخلق مخلوقات من العدم.. كنت أنت من مخلوقاته.

واختار من هذه المخلوقات التي لا تعد ولا تحصى مخلوقًا ليختصه بنعمة العقل، وينفخ فيه من روحه، نلت أنت هذا الشرف، شرف التكريم: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا**﴾ [الإسراء: ٧٠].

كان من الممكن أن تكون مخلوقًا آخر غير الإنسان كأن تكون حجرًا، أو عصفورًا، أو شجرة، أو حبة رمل، أو ...

ولكنه الفضل العظيم من الله عَزَّوَجَلَّ الذي اجتباك على كثير من مخلوقاته، وكرَّمك عليهم.

المشهد العظيم

قدَّر الله عَزَّوَجَلَّ لأبينا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ عددًا محددًا من الذرية تهبط إلى الأرض لتؤدي اختبار العبودية، كنت أنت واحدًا منهم، وشهدت المشهد العظيم الذي أخذ الله فيه العهد من جميع ذرية آدم على عبادته: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

هذا العدد الكبير الذي قدَّره الله لذرية آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يشأ سبحانه أن يُهبطه إلى الأرض دفعة واحدة، بل مجموعة تلو الأخرى، كل مجموعة تؤدي الامتحان ثم تترك الأرض بعد نزع أرواحها، وتبقى في القبور انتظارًا لنهاية امتحان الجميع، ليتم بعدها الحساب والجزاء.

لم يختر أحد من البشر المكان، أو الزمان، أو البيئة، أو الأبوين، أو الشكل الذي ستحل روحه فيه، ويؤدي من خلاله الامتحان، مع الأخذ في الاعتبار بأن الله عَزَّوَجَلَّ لم يظلم أحدًا من الناس، فبالعقل والفطرة يستطيع المرء في أي زمان ومكان الاستدلال على وحدانية الله، وكذلك فإن الرسل والكتب السماوية التي أنزلها الله عَزَّوَجَلَّ تُبيِّن للناس المطلوب منهم، ولكن بلا شك أن نزولك إلى الأرض في هذا الزمان وهذا المكان الذي نحيا فيه له مميزات ضخمة تدل على سبق فضلٍ واجتباءٍ عظيمٍ من الله لك.

سبق فضل الزمان

هيا بنا نُطلق لخيالنا العَنان، وليتخيل كل منَّا أنه قد ولِد في زمان آخر غير الزمان الذي وُلد فيه.

تخيل أنك قد وُلدت في زمان قوم لوط، لتجد نفسك -عافاك الله- من أبناء أسرة تقترف أسوأ أنواع الفاحشة والعياذ بالله .. ماذا كنت ستفعل؟!

ألا توافقني أنه اختبار قاسٍ كان عليك اجتيازه، وأن نسبة نجاحك فيه لا شك ضعيفة؟!

تخيل لو أنك وجدت نفسك ابنًا من أبناء قوم فرعون أو عاد أو ثمود، أو من أبناء القرامطة أو إحدى الفرق الضالة التي ظهرت في فترة من فترات التاريخ الإسلامي.

تخيل أنك قد ولدت في زمن التتار، أو محاكم التفتيش ماذا كنت ستفعل؟!

ألا ترى في تجنيبك كل ذلك عظيم حب ربك لك، وسبق فضله عليك أن أوجدك في هذا الزمان.

تيسر الحياة

ومما يلحق بنعم سبق الفضل في الزمان: تيسُّر الحياة، فلو كنت قد وُلدت منذ بضعة قرون في نفس المكان الذي تحيا فيه الآن.. تخيل مدى صعوبة الحياة في ذلك الوقت .. لا كهرباء .. لا دورات مياه .. لا سيارات .. أو طائرات.. لا وسائل اتصال .. لا عمليات جراحية ..

تخيل أنك في هذا الزمان أُصبت بضعف في النظر ماذا كنت ستفعل؟ أتدري حجم الصعوبات التي كنت ستواجهها بنظرك الضعيف؟

تخيل أماكن قضاء الحاجة التي كانت تبعُد عن مساكن الناس .. وتخيل حجم الجهد والوقت والمخاطر التي تواجه من يريد قضاء حاجته بخاصة في ليالي الشتاء الباردة والأجواء المتقلبة.

تخيل نفسك تريد السفر إلى مكة أو المدينة .. كم من الأيام كنت ستقضيها على ظهر بعيرك لتصل إلى مقصودك؟! تخيل .. تخيل.

سبق فضل المكان

هذا بالنسبة لنعم سبق الفضل في الزمان، ولكن هب أنك قد ولدت في هذا الزمان بالفعل، ولكن في مكان آخر غير الذي تحيا فيه الآن، تخيل أنك وُلدت في أدغال إفريقيا، أو في الإسكيمو، أو في أماكن الفيضانات أو الزلازل، أو الأعاصير، أو البراكين.

تخيل أنك قد وُلدت في أماكن الفتن والاضطهاد للمسلمين كتركستان وكشمير والفلبين وبورما.. ماذا عساك أن تفعل؟!

إن هؤلاء المضطهدين شاء الله عَزَّوَجَلَّ لهم أن يكونوا في هذه الأماكن ليؤدوا امتحان عبوديتهم لله بخاصة في مادة الصبر، وجزاؤهم عظيم إذا اجتازوا هذا الامتحان: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠] ولكنه بلا شك امتحان قاسٍ عصمك الله منه.

الوالدان

تخيل أنك ولدت في هذا الزمان، ولكن لأبوين نصرانيين أو يهوديين أو بوذيين أو ملحدين أو شيوعيين أو هندوسيين.. ماذا كنت ستفعل؟!

ماذا كنت ستفعل عندما ترى أبويك يسجدان للبقرة، أو للصليب؟! أكنت ستُعمل عقلك وتستنفر سليم فطرتك كما أمرك الله، وكما حدث من القليل منهم، أم كنت ستسير على خطى الأغلبية؟!

امتحان رهيب عصمك الله منه، بأن خلقك لأبوين مسلمين .. أليس كذلك؟!

ثم تخيل أنك كما أنت وُلدت في هذا الزمان والمكان والديانة، ولكنك وجدت

أباك يعمل في مهنة مخلة بالشرف.. أو وجدته جبارًا من الجبابرة؟!

تخيل أنك وُلدت في بيئة فجور أو أسرة مترفة .. ماذا كنت ستفعل؟!

إنها امتحانات صعبة عصمك الله منها دون سبب منك أو اجتهاد.

اللسان العربي

ولكــن هب أيضًا أنك قد وُلدتَ لأبوين مســلمين لكنهما يتحدثان غير العربية كاللغة الفارســية أو الأردية أو الهندية أو الصينية أو الإنجليزية .. ماذا كنت ستفعل لكي تفهم القرآن وتتأثر بآياته؟!

نعم، هؤلاء عليهم تعلــم العربية ليفهموا القرآن ويتأثروا به، ولكن ألا ترى في ذلك عظيم فضل الله عليك أن أوجــدك في بيئة تتحدث العربية، فلا تحتاج إلى جهد عظيم لكي تفهم كتابه وسنة نبيه ﷺ[1]؟!

سبق الفضل في العافية

تفكر ثم تفكر في مدى حب ربك لك، وســبق فضله عليك قبل أن تولد وذلك فيما سبق من جوانب، ثم تفكر في جانب عظيم من جوانب سبق الفضل الإلهي لك، ألا وهو سبق الفضل في العافية.

فلقــد قدَّر الله عَزَّوَجَلَّ أن يولد عدد من الناس وبهــم عيوب خلقية في القلب، أو قصور في المــخ، أو خلل في الأطراف كامتحان لهم من ناحيــة، ولإظهار نعمته على

(١) اعلم -أخي الحبيب- أنه كلما زادت النعم على العبد زاد المطلوب من الشكر، وجوهر الشكر هو الشعور بالامتنان تجاه الله عَزَّوَجَلَّ بالقلب، والاعتراف بفضله وكثرة حمده باللسان، واستخدام هذه النعمة في طاعته والتواضع بها لخلقه بالجوارح، فالذي يجد نفسه محاطًا بما سبق ذكره من نعم ثم لا يشكر ربه عليها انقلبت النعمة في حقه نقمة.

المعافين من ناحية أخرى، ومع ذلك، لم تكن أنت -بفضل الله- منهم.

بلا شك أن هذا النقص الذي ابتُلي به هؤلاء يحتاج منهم إلى صبر واحتساب لينجحوا في اختبارهم، ولكن ألا ترى عظيم فضل ربك عليك أن اختارك فألبسك ثوب العافية ترفل فيه؟!

كلمة لا بد منها

وجود نقص عند أي إنسان في أحد الأمور ليس دليلًا على عدم حب الله عَزَّوَجَلَّ له، بل هو عين الحب ولكن من جانب آخر، ولنعلم جميعًا أن الدنيا ليست دارًا للجزاء والنعيم كي يظن البعض هذا الظن، ولو يدري أهل العافية ما أعده الله لأهل البلاء الصابرين في الآخرة لتمنوا أنهم كانوا مثلهم.

إن النقص والبلاء الذي يصيب المرء ليس إهانة بل امتحانًا على صاحبه أن يجتازه، وكذلك فإن العطاء والفضل ليس كرامة بل امتحانًا أيضًا، فإن ظن المرء أن العطاء تفضيل ذاتي لشخصه دون مقابل فإن هذا العطاء يصبح وبالًا عليه كما حدث مع فرعون وقارون وصاحب الجنتين.

والحقيقة التي لا مرية فيها أن الله عَزَّوَجَلَّ يحب عباده جميعًا ويريد لهم الخير، فإن اختص أحدًا منهم بشيء فهو سبحانه يريد من وراء ذلك أن يشكره عليها، وأن ينفع عباده به كما جاء في الحديث: «**إِنَّ للهَ قَوْمًا يَخْتَصُّهُمْ بِالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ، وَيُقِرُّهُم فِيهَا مَا بَذَلُوهَا، فَإِذَا مَنَعُوهَا نَزَعَهَا مِنْهُمْ فَحَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهِمْ**»[1].

(١) الطبراني في الكبير (١٣/ ٢٠٧ برقم: ١٣٩٢٥)، ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج (برقم: ٥)، حلية الأولياء (٦/ ١١٥)، (١٠/ ٢١٥)، وانظر مجمع الزوائد (٨/ ١٩٢ برقم: ١٣٧١٤).

ثانيًا: من مظاهر حب الله لك
هدايته وعصمته ودوام عافيتـــه

خلصنا مما ســبق أنه قبل أن تولد وتخرج إلى الدنيا اختارك الله عَزَّوَجَلَّ لتكون من مخلوقاتــه، وأكرمك أكثر وأكثر فجعلك واحدًا من بني آدم، واختارك في هذا الزمان ابنًا لأبوين مسلمين ناطقين بالعربية.

أحلَّ روحك في شكل مناســب، وعافاك من كثير من الأمراض الخِلقية قبل أن تبدأ رحلتك على الأرض.

واستمر فضله عليك حتى يومك هذا...

اســتمر فضله في نعمة العافيــة، فقد حفظك طيلة ســنوات عمرك الماضية من الإصابة بأمراض كثيرة، وإذا ما أردت أن تعرف حجم هذا الحفظ، فتأمل كل صاحب مرض قد عافاك الله منه.

مئــات بل آلاف الأمراض التي تصيب أجهزة الجســم وأعضــاءه المختلفة قد عافاك الله منها.

لو علمت عدد الفيروســات والكائنات الدقيقة ومسببات الأمراض التي تحيط بنا، وتُســبب أمراضًا خطيرة، والتي لا يمنعها من مهاجمتنا إلا الله عَزَّوَجَلَّ، لهرعتَ إلى السجود الطويل شاكرًا لله عَزَّوَجَلَّ على حفظه لك طيلة هذه السنين، ولسألته دوام وتمام العافية.

هدايته لك

أخي القارئ، يا من أكرمك الله عَزَّوَجَلَّ بالإيمان.

أتــدري ما الذي حدث معك لتكون من أهل المســاجد، بــل من أهل الصلاة أصلًا، ومن أهل الصيام والذكر والصدقة وفعل الخير؟!

لقد حبَّب الله إلى قلبك الإيمان، وشرح لــه صدرك، وكرَّه إليك طريق الضلال والغــي، ولو أردت أن تدرك حجم هذه النعمة العظيمــة فتأمل أقرانك وجيرانك، وزملاء دراستك.

كم واحدًا منهم مثلك في تدينك والتزامك؟!

أتظن أن لك يدًا في ذلك؟! لا والله، بل هو محض الفضل الإلهي الذي منَّ الله به عليك:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [النور: ٢١]

إن كل صلاة صليتها كان الله سبحانه سببًا في أدائك إياها.

فقــد كان من الممكن ألا تجد في نفســك همــة ولا عزيمة للقيام بهــا، بل فتورًا وتكاسلًا.

كان من الممكن أن يصيبك شيء يقعدك، ويعيقك عن أدائها.

كان من الممكن أن يأتيك من يشــغلك عنها، يأتيك اتصــال هاتفي طويل، أو تحدث مشكلة تتدخل لحلها أو ...

كان من الممكــن أن تذهب إلى أدائها فلا يطاوعك لســانك عــلى الذكر، ولا أعضاؤك على الحركة.

هذه هي الحقيقة، فالذي مكنك من هذا كله وأزال عنك العوائق وشرح صدرك لأدائهــا هو ربك الودود، فليــس بينك وبين ترك الصــلاة إلا أن يتركك الله عَزَّوَجَلَّ لنفسك وحبها الدائم للراحة وكرهها المعهود للتكليف.

وكــن على يقين بأن الفضــل الإلهي يحدث مع كل صــلاة تصليها، وكل صوم تصومه، وكل صدقة تتصدق بها، وكل تســبيحة تسبحها: ﴿وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ﴾ [سبأ: ٥٠].

العصمة

أما عــن مظاهر حب ربك لك في جانــب العصمة من الفجــور والكفر فمن الصعب إدراك أبعادها، ويكفيك في ذلك أن كل معصية تحدث على وجه الأرض من كفر واســتهزاء بالدين، وإلحاد، وسرقة، وزنا، وتعامل بالربــا، وأكل أموال الناس بالباطل، وغش، وخداع، ورشوة، وعقوق للوالدين، و....

كل هذه المعاصي وغيرها لا يمنعك من القيام بها سوى ربك الذي كرَّهك فيها، وصرف ذهنك عنها، وأبعدك عن طريقها، وأبعدها عن طريقك.

فإن قلت: وهل من الممكن أن أفعل ذلك وأنا لم أقترف شــيئًا منها طيلة حياتي، ولم أفكر فيها؟

نعم أخي، من الممكن أن يفعلها أي واحد منَّا لو تركه الله عَزَّوَجَلَّ ولم يعصمه منها، فلا يوجد في البشر من يســتعصي على فعل المعصية -صغيرة أو كبيرة- وذلك لطبيعة

النفس البشرية الأمارة بالسـوء ووجود الشيطان الذي يوسوس ويزين للنفس فعل المعاصي.

فإن كنت في شك من هذا فتأمل معي دعاء إبراهيم عليه السلام لربه: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. وكذلك يوسف الصديق عليه السلام عندما استجار بربه ليصرف عنه فعل السوء: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

فماذا تقول لربك بعد ذلك؟!

ماذا تقول لمن عصمك من الكفر والفسوق والعصيان؟!

ماذا تقول لمن اجتباك وهداك إلى صراطه المستقيم؟!

ألا ينبغي لنا أن نردد -بيقين- ما كان يقوله رسـولنا ﷺ لربه في صباح كل يوم: «**وَأَنَّكَ إِنْ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي، تَكِلْنِي إِلَى ضَعْفٍ وَعَوْرَةٍ وَذَنْبٍ وَخَطِيئَةٍ، وَإِنِّي لَا أَثِقُ إِلَّا بِرَحْمَتِـكَ**»[1]. ونقول: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

• • •

(١) مسند الإمام أحمد (٥/ ١٩١)، مستدرك الحاكم كتاب الدعاء (١/ ٥١٦)، وانظر مجموع رسائل ابن رجب، طبعة دار الفاروق الحديثة (١/ ٩٩)، شرح حديث لبيك اللهم لبيك.

ثالثًا: من مظاهر حب الله لك
قيامه على شئونك

تخيل معي لو أن شخصًا ما يقوم برعايتك باستمرار، ويدير كل شئونك.. يأتيك بالطعام والشراب وسائر ما تحتاج.

تريد الماء فتجده يسارع بإحضاره، وسقايته لك.

تريد الطعام فيشتريه ويطهيه ويناولك إياه، بل يطعمك بنفسه.

يحمل عنك أغراضك، ويقضي لك حوائجك.

تنام فيظل ساهرًا بجوارك، يحرسك ويحميك، ويطمئن عليك.

تخيل لو أن شـــخصًا يفعل معك ذلـــك كل يوم وبدون مقابل.. ماذا ســـتكون مشاعرك نحوه؟!

أليست مشاعر الامتنان والحب هي التي ستغمرك تجاهه؟!

فإن كان من الطبيعي أن تتملكك هذه المشـــاعر تجاه من يتولى رعايتك في بعض جوانب حياتك، فماذا ينبغي أن تكون مشاعرك تجاه من يتولى القيام على جميع شئونك منذ أن ولدت وحتى يومنا هذا.. وحتى لحظتك هذه؟!

لا حول ولا قوة إلا بالله

لقد خلقنا الله عَزَّوَجَلَّ من العدم، وجعل لنا السمع والأبصار والأفئدة والأطراف والأجهزة المختلفة كأسباب تتيسر لنا من خلالها الحياة بلا منغصات.

هذه الأسباب لا تملك في نفسها القدرة الذاتية على القيام بوظائفها المختلفة، فالعضلات -مثلًا- خلقها الله عَزَّوَجَلَّ ولديها القابلية للانقباض والانبساط، لكن الذي يمدها بالفاعلية والقدرة على ذلك هو الله سبحانه وتعالى. في كل لحظة وطرفة عين يمدها سبحانه بما يكفل لها القيام بوظيفتها ولو تخلى عنها طرفة عين لما انقبضت، ولا انبسطت، فإذا أردت الضحك لا تطاوعك عضلات فمك فيما تريد؛ لأنها بدون المدد الإلهي تبقي عاجزة: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ [النجم: ٤٣].

هذه هي الحقيقة فهو سبحانه الذي أضحك وأبكى، وهو الذي أقام وأقعد، وهو الذي حرَّك وسكَّن.

نعم -أخي القارئ- لا قيمة لأحد منا بدون الله، وكيف لا وكل خلية تعمل في جسمك فإن ربك هو القائم عليها، وعلى تدبير شئونها.

القلب يتعاهده ويحفظه ويتولى ضبط سرعة ضخه للدم.

اللقمة التي تأكلها في فمك يتولى سبحانه وتعالى عملية تسييرها وهضمها وامتصاص النافع منها، وإخراج ما ينبغي إخراجه.

النَّفَس الذي تتنفسه يتولى سبحانه عملية دخوله إلى الرئتين وأخذ مادة الأكسجين منه وإخراجه مُحَمَّلًا بثاني أكسيد الكربون.

الكُلية يعمل بها حوالي مليون جهاز ترشيح يقوم عليهم جميعًا، ويتولى أمر حفظهم وإمدادهم بالقدرة على تنقية الدم والسوائل مرات ومرات في اليوم الواحد.

يقوم سبحانه على الجهاز العصبي والإحساس، وعلى الجهاز المناعي، وعلى الغُدد وما تفرزه من هرمونات تحتاج دومًا إلى ضبط نِسبها الدقيقة في الدم.

قائم على الدم، وضبط درجة سيولته في كل لحظة، فلو زادت لحدث النزيف ولو نقصت لكانت الجلطات والعياذ بالله.

يتولى سبحانه أمر إبصارك بالعين، وسماعك بالأذن، ونطقك باللسان.

يمدك بالماء ويمكِّنُك من شربه، ويمده بالقدرة على إروائك: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [الحجر: ٢٢].

يتولى أمر إثمار الطعام بأنواعه لتجده أمامك في أي وقت تشاء:

﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ [عبس: ٢٤- ٣٢].

يوحي إليك فعل الخيرات ويحببها إليك، ويصرف عنك فعل المنكرات ويكرهك فيها.

يجعلك تنام لترتاح، ويتولى حفظك وأنت نائم، ثم هو الذي يوقظك ويرد إليك روحك.

قريب منك.. أقرب مما تتخيل، يجيب دعاءك إذا ناديته بصدق وطلبت منه حاجتك.

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

يحميك من نفسك ومن عدوك:

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: ٣٦].

يحفظ لـــك أولادك وأهلك: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّـــفَرِ، وَالْـــخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ**»(١).

فماذا تقول لمن يفعل معك كل هذه الأمور وغيرها كل يوم ومنذ أن ولدت؟!

ماذا تقول لمن يطعمك ويسقيك وإذا مرضت فهو الذي يشفيك؟!

فلتُردد معي قول رسول الله ﷺ: «**الْـــحَمْدُ للهِ الَّذِي يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ، مَنَّ عَلَيْنَا فَهَدَانَا، وَأَطْعَمَنَا وَسَـــقَانَا، وَكُلُّ بَلاءٍ حَسَـــنٍ أَبْلانَا، الْـــحَمْدُ للهِ غَيْرَ مُوَدِّعٍ رَبِّي، وَلا مُكَافِئٍ وَلا مَكْفُورٍ، وَلا مُسْتَغْنًى عَنْهُ، الْـــحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَ مِنَ الطَّعَامِ، وَسَقَى مِنَ الشَّرَابِ، وَكَسَى مِنَ الْعُرْيِ، وَهَدَى مِنَ الضَّلالِ، وَبَصَّرَ مِنَ الْعَمَى، وَفَضَّلَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِهِ تَفْضِيلًا، الْـحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَـمِينَ**»(٢).

● ● ●

(١) جزء من حديث رواه مسلم في كتاب الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج (برقم: ٤٢٥).

(٢) الحاكم في المستدرك (١/ ٥٤٦)،كتاب الدعاء، باب دعاء يقال عند غسل اليدين بعد فراغ الطعام، ابن حبان (١٢/ ٢٣ برقم: ٥٢١٩) كتاب الأطعمة، ذكر ما يحمد العبد ربه جل وعلا، إثارة الفوائد (١/ ٣٥٣)، ابن السني في عمل اليوم والليلة (برقم: ٤٨٦).

رابعًا: من مظاهر حبه لك
تسخيـر الكون لك

الله عَزَّوَجَلَّ خلق الإنسـان ليكون عبدًا له، وسـيدًا لما سـواه، فلقد جعل الكون المحيط به مسـخرًا لخدمته، يعمـل من أجل راحتـه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾[الرحمن : ١٠].

انظر -مثلًا- إلى السـماء فستجد الشمس تتحرك حركة دائبة كل يوم من المشرق إلى المغـرب، لم تخلد يومًـا إلى الراحة، وكيف تفعل ذلك وتغيـب عنا وهي مأمورة بإمدادنا بالضياء والطاقة؟

والقمر كذلك يتحرك حركة دائبة من أول يوم في الشهر العربي يكون فيه هلالًا يكبر يومًا بعد يوم فيكون بدرًا يضيء السماء، ثم يعود كما كان في نهاية الشهر فيساعدنا بذلك على معرفة الأيام والشهور: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢، ٣٣].

أنت القائد

أنت قائد هذا الكون أيها الإنسان، فكل ما فيه مسخر لخدمتك..

انظر إلى جسـمك وتأمل ما فيه من جوانب التسخير والخدمة لك أيها المكرم.. فعينك مُسخَّرة لترى بها ما حولك، ولسانك ما هو إلا خادم لك لتعبِّر من خلاله عما

تريده، ويدك للتسبيح والكتابة والبطش، ورجلك للحركة والذهاب إلى حيث تشاء.

كل هذا يتم دون اعتراض أو تمنُّع، بل استسلام تام وانقياد تام لأوامرك.

هل فكرت يومًا في الطعام الذي تأكله كيف تتم رحلته داخل جسمك فيحدث من خلالها الهضم والامتصاص وإخراج الفضلات.

إن الأجهزة الداخلية تعمل داخلك ليل نهار لتقوم على راحتك، فلا تجهد ذهنك في التفكير عن كيفية عملها، وماذا يحدث في داخل الرئتين أو القلب أو الكبد أو....

لا تفكر في كيفية التئام جرح من الجروح فهناك من يقوم بذلك.

أرح نفسك من هذا كله فهناك خدم كثيرون لا يحصى عددهم يقومون على خدمتك.

أيها المُدلَّل

انظر إلى طعامك.. وتخيل أن هذه الخضراوات والفواكه لن تكون موجودة بهذه السهولة، وأن المطلوب منك هو أن تقوم بنفسك على عملية تكوينها من عناصرها الأصلية.

كم من الوقت والجهد ستبذله للحصول على بعض ثمار الخيار مثلًا، بل على ثمرة واحدة؟!

أيها المُدلَّل

أتدري أن هناك مصانع لا تعد ولا تحصى موجودة تحت الأرض وفوقها تعمل ليل نهار-بإذن ربها- من أجل أن توفر لك شتى أنواع الأطعمة، وما عليك إلا أن تجمع إنتاجها، وتختار منه ما يروق لك؟!

تخيل ثم تخيل

تخيل- أخي القــارئ- لو أن الدابة التي تســتخدمها في تنقلاتك من مكان إلى آخــر، قد أنطقها الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا هي تســألك قبل تحركها بك عــن وجهتك، ولماذا تذهب إلى هذا المكان، وكم من الوقت ستستغرقه فيه و.....

تخيل أن الماء الذي تريد شربه لا يتحرك في فمك، بل يسألك: لماذا تشرب الآن؟ ألم تشرب منذ قليل؟!

تخيل أنك تريد الكتابة فلا تتحرك معك يدك بل توبخك على كثرة اســتخدامها وعدم إعطائها راحتها.

تخيــل ذلك وتخيل أن كل ما حولك من المخلوقــات يتكلم، ويناقش قبل قيامه بتنفيذ الأوامر.. ثم اسأل نفسك: كيف ستكون الحياة بهذا الشكل؟!

لا تستغرب -أخي- هذا الكلام، فبالفعل قد أنطق الله بقرةً في عصر من العصور الســابقة؛ لتكون آية للناس تشعرهم بحجم نعمة التسخير، ونعمة صمت الكائنات من حولنا.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: صلى رســول الله ﷺ صــلاة الصبح، ثم أقبل على الناس، فقال: «**بَيْنَا رَجُلٌ يَسُــوقُ بَقَرَةً إِذْ رَكِبَهَا فَضَرَبَهَا، فَقَالَتْ: إِنَّا لَمْ نُخْلَقْ لِهَذَا، إِنَّمَا خُلِقْنَا لِلْحَرْثِ**» فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللهِ بَقَرَةٌ تَكَلَّمُ، **فَقَالَ: «فَإِنِّي أُومِنُ بِهَذَا، أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ...** [(١)]».

(١) البخاري كتاب (المناقب)، في فضائل أصحاب النبي ﷺ (برقم: ٣٦٩٠)، وفي المزارعة، باب استعمال البقر للحراثة (برقم: ٢٣٢٤).

سل نفسك

وبعد أن تخيلت ما تخيلت، سل نفسك:

هل يرفض الماء إرواءك، والطعام إشباعك؟!

هل ترفض الدواب حملك إلى المكان الذي تريد ولو كان لا يرضي الله عَزَّوَجَلَّ؟!

هل امتنعت النار عن الإحراق والماء عن الغليان؟!

هل امتنعت الشمس يومًا عن الإشراق، والليل عن الإظلام؟!

تأمل ثم تأمل هذا اللون العجيب من نعم التسخير والتكريم لك أيها الإنسان، واسأل نفسك- مرة أخرى- لماذا ميزك الله عن سائر مخلوقاته؟!

ولماذا هيأ الكون كله لخدمتك، وجعلك قائده وسيده؟!

هل هناك جواب آخر غير أنه يحبك ويريد لك النجاح في المهمة التي خُلقت لأجلها؛ ومن ثَم دخول الجنة والتمتع بنعيمها الأبدي؟!

جاء في الأثر: «**يَا ابْنَ آدَمَ خَلَقْتُ كُلَّ شَيْءٍ لَكَ وَخَلَقْتُكَ لِنَفْسِي، فَلَا تَشْتَغِلَ بِمَا خَلَقْتُهُ لَكَ عَمَّا خَلَقْتُكَ لَهُ**»[1].

• • •

(١) أورده الحافظ ابن رجب في شرح حديث «إن أغبط أوليائي عندي» - انظر مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي (٢/ ٧٤٩).

خامسًا: من مظاهر حبه لك
كرمه البالغ وهداياه المتنوعة إليك

إن ميزان العدل يقول: أن من عمل حسنة كان جزاؤه حسنة، ومن عمل سيئة كانت عليه سيئة، ولكن ميزان الكرم والفضل الإلهي له رأي آخر: ﴿**وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا**﴾ [الشورى: ٢٣].

فميزان الحسنات يختلف عن ميزان السيئات، كرمًا منه سبحانه وتعالى، وحبًّا لعباده، ورغبةً في دخولهم الجنة: ﴿**مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾ [الأنعام: ١٦٠].

تأمل -أخي القارئ- قول رسول الله ﷺ: «**فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً**»(١).

فإن كنت في شك من جوده وكرمه فماذا تقول في قوله ﷺ: «**مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ مِائَةَ مَرَّةٍ، غُفِرَتْ لَهُ ذُنُوبُهُ، وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ**»(٢).

وماذا تقول في قوله ﷺ: «**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْـمُلْكُ،**

---

(١) البخاري في الرقاق، باب من هم بحسنة أو سيئة (برقم: ٦٤٩١)، مسلم في الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت... (١٣٠-١٣١).

(٢) الترمذي في الدعوات، (باب رقم (٦٠) برقم: ٣٤٦٨)، ابن ماجه في الأدب، باب فضل التسبيح (برقم: ٣٨١٢).

ولَهُ الْـــحَمْدُ، وْهوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِير، عَشْرَ مَرَّاتٍ، كَانَ كَمَنْ أَعْتَقَ أَرْبعَ أَنْفُسٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيل»[١].

وغـــير ذلك من الأعمال المتاحة للجميع في أي وقت، والتي رتب الله على أدائها عظيم الثواب.

من الأمير؟

جعل الله عَزَّوَجَلَّ لكل عبد من عباده ملكين يُحصيان عليه أعماله: ملكًا على اليمين يكتب الحسنات، وملكًا على الشمال يكتب السيئات، فمن هو الأمير الذي له الكلمة على الآخر؟!

يقول رسول الله ﷺ: «**صَاحِبُ الْيَمِينِ أَمِينٌ عَلَى صَاحِبِ الشِّمَالِ، فَإِذَا عَمِلَ الْعَبْدُ حَسَنَةً كَتَبَهَا بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَإِنْ عَمِلَ سَيِّـــئَةً فَأَرَادَ صَاحِبُ الشِّمَـالِ أَنْ يَكْتُبَهَا قَالَ لَهُ صَاحِبُ الْيَمِينِ: أَمْسِكْ عَنْهَا، فَيُمْسِكُ عَنْهَا؛ فَإِنِ اسْتَغْفَرَ لَمْ تُكْتَبْ، وَإِنْ سَكَتَ كُتِبَتْ عَلَيْهِ**»[٢].

أأدركت أخي قدر المعاملة الكريمة التي يعاملنا الله بها؟!

كريم في عطاياه

هذا من ناحية الكرم في الجزاء، أما الكرم في العطاء والرزق فحدِّث ولا حرج.. انظر معي إلى أصناف الفواكه مثلًا، ألم يكن يكفينا صنف أو صنفان يُدخلان السرور

---

(١) جامع الأصول لابن الأثير، كتاب الدعاء الفرع الثالث في التهليل أحاديث (برقم: ٢٤٤٩-٢٤٥٠-٢٤٥١..) وعزاها للبخاري ومسلم، والموطأ (٣/ ٢٧٥).

(٢) مجمع الزوائد، كتاب التوبة، باب العجلة بالاستغفار (٢١/ ٨٨ بأرقام: ١٧٥٢٥-١٧٥٢٦-١٧٥٢٧).

علينا، ونتمتع بلذيذ طعمها؟! ولكنه الكرم الإلهي غير المحدود أتاح لنا هذه الأنواع الكثيرة كي نتمتع بها، بل إن الصنف الواحد له عدة صور، وقل مثل ذلك على الخضراوات والطيور والأسماك.. هذا مع العلم بأننا لم نعرف بعد كل أنواع هذه المأكولات.

بل العجيب أن هناك مخلوقات خلقها الله عَزَّوَجَلَّ لإشاعة البهجة في نفوسنا عند رؤيتها: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠].

الهدايا المتنوعة

لقد وصانا نبيُّنا ﷺ بالتهادي فيما بيننا ليزداد الحب، فالهدية لها تأثير عجيب في استمالة القلوب تجاه مُعطيها؛ قال رسول الله ﷺ: « **تَهَادَوْا تَحَابُّوا** »[(١)].

هذه الوسيلة العظيمة ذات الأثر المجرب في تنمية الحب يفعلها معنا ربنا باستمرار، فهداياه لا تنقطع عنا رغم إعراضنا الشديد عنه، يتودد بها إلينا حتى نزداد له حبًّا، وهو من هو.. هو الإله العظيم الذي خضعت له السماوات والأرض والجبال والبحار وكل شيء في هذا الكون.. هو الله الذي له ملكوت كل شيء.

هو الرب الغني الذي لا ينتظر من عباده طاعة تنفعه، ولا يخشى منهم معصية تضره -حاشاه- هذا الإله بجلاله وكماله وملكه العظيم يتودد ويتحبب إلينا بإرسال تحفه وهداياه كل حين، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ،**

(١) مجمع الزوائد (٩/ ٣٦٠ برقم: ٦٧٧٩)، وعزاه للطبراني وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (٣٦٣) بتحقيق حسين سالم أسد.

فَتَعَرَّضُوا لَهَا؛ لَعَلَّ أَحَدَكُمْ أَنْ يُصِيبَهُ مِنْهَا نَفْحَةٌ لَا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا»[١].

ومن هذه النفحات والهدايا: يوم عرفــة.. فإن صمته -أخي القارئ- غُفر لك ذنوب عامين: عام سابق وعام لاحق، وإن استطعت أن تكون في أرض عرفة في هذا اليوم تستغفر ربك غُفرت كل ذنوبك، وأصبحت كيوم ولدتك أمك.. بلا ذنوب ولا خطايا.

وكذلك يوم عاشوراء فمن صامه غُفرت له ذنوب عام كامل.

والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهما إذا ما اجتنبت الكبائر.

وفي شــهر رمضان: الفريضة فيه بسبعين فريضة، والعبادة في ليلة القدر خير من عبادة ألف شهر.

فماذا تقول لمن يهديك كل هذه الهدايا بلا مقابل ينتظره؟!

«يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَــكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا»[٢].

قال بعضهم: ليس العَجَب من فقيرٍ يتودَّد، وإنما العَجَب من غنيٍ يتحبَّب.

يرضى بالحمد شكرًا

إن الحقيقة التي لا مرية فيها أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يطعمنا ويســقينا ويتولى جميع شئوننا بالإمداد والرعاية ولولاه ما كانت حياة.

---

(١) مجمع الزوائد (٢١/ ١٩٤)، باب التعرض لنفحات رحمة الله (برقم: ١٧٦٦٢) وعزاه للطبراني في الأوسط الكبير.

(٢) رواه الإمام مسلم (٤/ ١٩٩٤ برقم: ٢٥٧٧).

والمفترض أن يكون المقابل الذي نؤديه لله عَزَّوَجَلَّ كشكر له على نعمه وإمداده المتواصل لنا: هو السجود المتواصل، والتسبيح المطلق كحال الكون كله وما فيه من مخلوقات: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

ولكنه -سبحانه وتعالى- لم يطلب منا ذلك، بل طلب أعمالًا يسيرة لا تستغرق منا وقتًا معتبرًا، ويكفيك في هذا قول رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا**»(١).

بل إنه سبحانه وتعالى يُعلي من شأن هذا الحمد كما قال ﷺ: «**مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً، فَحَمِدَ اللهَ عَلَيْهَا إِلَّا كَانَ ذَلِكَ الْحَمْدُ أَفْضَلُ مِنْ تِلْكَ النِّعْمَةِ، وَإِنْ عَظُمَتْ**»(٢).

رب شكور

بلا شك أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يُحبِّب إلينا فعل الخير، ويُعيننا على القيام به، ويصرف عنا الشواغل، ويزيل العوائق، فلولاه سبحانه ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

ومع ذلك فإننا نجده سبحانه يُعظِّم أعمالنا ويكبرها، ويشعرنا بأننا قد فعلنا شيئًا عظيمًا.. تأمل قوله لأهل الجنة: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

أهذه الأعمال القليلة تستحق هذا الجزاء العظيم لو افترضنا أن أصحابها بالفعل قد قاموا بها دون إعانة من أحد؟ فما بالك والأمر غير ذلك، فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي وفقهم وأعانهم للقيام بها، ثم يقول لهم بعد ذلك وهم يتقلبون في صور النعيم في

(١) مسلم في الذكر والدعاء، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب (برقم: ٢٧٣٤)، الترمذي في الأطعمة، باب ما جاء في الحمد إذا فرغ من الطعام (برقم: ١٨١٦).

(٢) الطبراني في الكبير (٨/ ٢٢٨ برقم: ٧٧٩٤)، وفي مسند الشاميين (برقم: ٢٢٨٢).

جنات الخلود: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢].

تخيل لو أن رجلًا غنيًّا -واسع الثراء- له صديق فقير يحبه كثيرًا ويريد أن يساعده دون أن يجرح مشاعره، فهداه تفكيره إلى أن يطلب منه القيام ببعض الأعمال البسيطة الخاصة به، فلما قام بها أعطاه مقابل ذلك عطاء كبيرًا، ولم يكتف بذلك بل أشعره بأن ما قام به من أعمال قد عادت عليه بنفع كبير، وأنه مهما أعطاه فلن يستطيع أن يوفيه حقه، و...

كل هذا ليقبل صديقه الفقير أعطيته بنفس راضية، على الرغم من أن هذا الفقير يعلم في قرارة نفسه أن هذا المقابل لا يتناسب بأي حال من الأحوال مع ما قام به من أعمال.

هذا تشبيه- مع الفارق- لما يستشعره أهل الجنة عندما يفاجؤون بنعيم لا يمكن تخيله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٣].

فماذا يقولون بعد ذلك؟!

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، فإذا بهم يفاجؤون بنداء يقول لهم: بل هذا حقكم وجزاء أعمالكم: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

كرم عجيب

تأمل معي -أخي القارئ- هذا الحديث الشريف الذي يخبرنا عن حوار دار بين آخر رجل يدخل الجنة، وبين الله عَزَّوَجَلَّ، فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

قال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، وَآخِرَ أَهْلِ الْـجَنَّةِ دُخُولًا الْـجَنَّةَ، رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ حَبْوًا، فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلْ الْـجَنَّةَ، فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلْأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، وَجَدْتُهَا مَلْأَى، فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْـجَنَّةَ، قَالَ: فَيَأْتِيهَا، فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلْأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، وَجَدْتُهَا مَلْأَى، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلْ الْـجَنَّةَ، فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا -أَوْ إِنَّ لَكَ عَشَرَةَ أَمْثَالِ الدُّنْيَا-، قَالَ: فَيَقُولُ: أَتَسْخَرُ بِي -أَوْ أَتَضْحَكُ بِي- وَأَنْتَ الْـمَلِكُ؟**»، قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، قَالَ: «**فَكَانَ يُقَالُ: ذَاكَ أَدْنَى أَهْلِ الْـجَنَّةِ مَنْزِلَةً**»[١].

وفي نهاية الحديث عن مظاهر الكرم الإلهي أتركك -أخي- تتأمل قول رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ رَحِيمٌ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحي مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَرْفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ ثُمَّ لَا يَضَعُ فِيهِمَا خَيْرًا**»[٢].

• • •

(١) البخاري في الرقاق، باب في صفة الجنة والنار (برقم: ٦٥٧١)، مسلم في الإيمان، باب آخر أهل النار خروجًا (برقم: ١٨٦).

(٢) الحديث في الجامع الصغير (برقم: ٢٦٤٩)، وانظر فيض القدير للمناوي (٢/ ٢٨٥).

سادسًا: من مظاهر حب الله لك
رحمته ورأفته بك وشفقته وحنانه عليك

في يوم من الأيام وبينما كان رسول الله ﷺ بين صحابته إذ جاءه سَبْي، وفي هذا السَّبْي امرأة تسعى ملهوفة مضطربة -فقد ضاع منها صبيها- واستمرت على ذلك الحال الشديد حتى وجدته، فأخذته وضمته إلى صدرها بشدة، ثم أرضعته.

منظر مؤثر دفع رسول الله ﷺ لأن يعلق عليه ويقول لأصحابه: «**أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟**» قُلْنَا: لَا، وَاللهِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**»(١).

وفي بعض مغازيه ﷺ وبينما كان يسير مع أصحابه، إذ أخذ بعضهم فرخ طير، فأقبل أحد أبويه حتى سقط في أيدي الذي أخذه، فقال رسول الله ﷺ: «**أَلَا تَعْجَبُونَ لِهَذَا الطَّيْرِ أُخِذَ فَرْخُهُ فَأَقْبَلَ حَتَّى سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ، وَاللهِ للهُ أَرْحَمُ بِخَلْقِهِ مِنْ هَذَا الطَّيْرِ بِفَرْخِهِ**»(٢).

نعم، -أخي القارئ- الله عَزَّوَجَلَّ أرحم بنا من أمهاتنا، ومن آبائنا، وأبنائنا وأزواجنا. يقول عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لله أرحم بعبده يوم يأتيه، أو يوم يلقاه، من أم واحد فرشت له بأرض قرّ، ثم قالت (نامت) فلمست فراشه بيدها، فإن كان

---

(١) البخاري في الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (برقم: ٥٩٩٩)، مسلم في الفضائل، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (برقم: ٢٧٥٤).

(٢) البزار في البحر الزخار «مسند البزار» (١/ ٤١٢ برقم: ٢٨٧) كشف الأستار للهيتمي في كتاب البعث، باب في رحمة الله سبحانه (٢/ ١٧٤ برقم: ٣٤٧٧).

به شوكة كانت بها قبله، وإن كانت لدغة كانت بها قبله[١].

لا وجه للمقارنة

فـإن قلت: إن والديَّ لا يفتآن يدعوان لي بالصـلاح والفلاح حرصًا منهما عليَّ وعلى اسـتقامتي، ذكرناك بقوله تعالى: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا** ﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وإن قلت: فإن والديَّ يعتصرهما الألم والشفقة إذا ما أصابني مكروه من مرض ونحوه، بشرناك بأن الله عَزَّوَجَلَّ يشـملك وقت مرضك -عافاك الله من كل مكروه- برعاية ومعية لا يمكن تصورها، ويكفيك في ذلك هذا الحديث القدسي الذي يخبرنا بـأن الله عَزَّوَجَلَّ يقول يوم القيامة: «**يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَـمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ؟ وَأَنْـتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْـدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟**»... الحديث[٢].

وليس هذا فحسـب بل إنه سـبحانه وتعالى قد رغَّب عباده في عيادة المريض، ووعدهـم على ذلك بعظيم الجزاء لتكون الزيارة سـببًا في رفـع معنويات المريض، وتخفيفًا عنه، وتسرية له.

قال رسـول الله ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَعُودُ مُسْلِمًا غُدْوَةً إِلاَّ صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَـكٍ حَتَّى يُمْـسِيَ، وَإِنْ عَـادَهُ عَشِيَّةً إِلاَّ صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُصْبِحَ، وَكَانَ لَهُ خَرِيفٌ فِي الـجَنَّةِ**»[٣].

---

(١) حسن الظن بالله لابن أبي الدنيا (برقم: ٢١)، والزهد لابن المبارك (برقم: ٨٩٩).

(٢) مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل عيادة المريض (برقم: ٢٥٦٩).

(٣) رواه الترمذي (برقم: ٩٦٩) وأبو داود (برقم: ٣٠٩٨) وابن ماجه (برقم: ١٤٤٢) وهو حديث =

وليس ذلك للمريض فحسب، بل لكل أصحاب الحالات الخاصة والضعفاء كأهل البلاء والأرامل والأيتام.

فهؤلاء تزداد الرحمة والشفقة الإلهية عليهم، وتزداد تبعًا لذلك وصاياه لنا برعايتهم مع وعده -سبحانه- بعظيم الجزاء الذي يفوق ويفوق ثواب الكثير من العبادات.

ففي الحديث الذي رواه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ، كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ** -وَأَحْسِبُهُ قَالَ- **وَكَالْقَائِمِ لَا يَفْتُرُ، وَكَالصَّائِمِ لَا يُفْطِرُ**»(١).

ويخبرنا ﷺ مبلغًا عن ربه بأن: «**مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ**» وَضَمَّ أَصَابِعَهُ(٢).

أما عن اليتيم فلا تسل عن فضل كفالته.. يكفي أن كافله سيكون جار رسول الله ﷺ في الجنة.

وليس هذا فحسب، بل كان الترهيب الشديد من تضييع أمواله: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا**﴾ [النساء: ١٠].

ولماذا الابتلاء؟!

قد يقول قائل: ولماذا هذه الأقدار المؤلمة، والابتلاءات الشديدة التي تتنافى

= صحيح، والخريف: أي الثمر المجتنى.

(١) متفق عليه: البخاري كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل (برقم: ٥٣٥٣)، ومسلم كتاب الزهد والرقائق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم (برقم: ٢٩٨٢).

(٢) رواه مسلم في البر والصلة، باب فضل الإحسان إلى البنات (برقم: ٢٦٣١).

-ظاهرًا- مع مظاهر الرحمة الإلهية بالناس؟!

نعم، قد يكون لهذا السؤال وجاهته إن كانت الدنيا هي دار النعيم الأبدي والمستقر النهائي، ولكن الدنيا ليست كذلك، فهي دار اختبار، يؤدي كل من عليها امتحانًا في مدى عبوديته لربه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

هذا الامتحان مكون من تكاليف يقوم بها الفرد، وأدوات عليه أن يُحسن التعامل معها، فالتكاليف هي الأوامر والنواهي، والأدوات هي العطاء والمنع.

أما العطاء فهو كل ما يرد على العبد من النعم، والمطلوب منه أن يشكر الله عليها.

والمنع هو كل ما يمنع الله منه العبد من صحة أو مال أو....، والمطلوب أن يصبر على ذلك ابتغاء وجه الله.

فالعطاء ليس دليل كرامة من الله للعبد، والمنع ليس دليل إهانة، بل كلاهما مواد اختبار: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥ - ١٧].

فإن قلت: ولماذا لا يمتحن الناس جميعًا في مادة العطاء؟

لو كان الجميع في صحة وعافية ورزق وفير ما استشعر الناس قيمة هذه النعم، ولما انكشف المتواضع من المتكبر، ولا الشاكر من الجاحد، ولا الصابر من الشاكي ربه.. ألم يقل سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ

﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن الله عَزَّوَجَلَّ يبسط الرزق أو يمنعه عن عباده حسب ما يصلحهم، وبحسب حالتهم التي لا يعلمها سواه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٣٠].

لذلك جاء في الحديث القدسي يقول الله عَزَّوَجَلَّ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا الْغِنَى وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا الْفَقْرُ وَإِنْ بَسَطْتُ لَهُ أَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا الصِّحَّةُ وَلَوْ أَسْقَمْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا السَّقَمُ وَلَوْ أَصْحَحْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ...»[(١)].

وما يؤكد هذا المعنى قول رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا، وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمْ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ تَخَافُونَهُ عَلَيْهِ»[(٢)].

من فوائد الابتلاء

الله عَزَّوَجَلَّ يبتلي عباده ليذكِّرهم به، وبضرورة العودة إليه قبل فوات الأوان: ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٤٨] فهو إذن مظهر عظيم من مظاهر رحمة الله بالعصاة: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢].

---

(١) أبو نعيم في الحلية (٨/ ٣١٩)، ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء (برقم: ١).

(٢) مسند الإمام أحمد (٣٩/ ٣٣ برقم: ٢٣٦٢٢)، شرح السنة للبغوي (برقم: ٤٠٦٥)، مستدرك الحاكم (٤/ ٢٠٨)، ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (برقم: ٣٨)، البيهقي في شعب الإيمان (برقم: ١٠٤٤٨، ١٠٤٤٩).

ويبتلي سبحانه عباده كذلك ليطهرهم من ذنوبهم في الدنيا قبل أن لا يصبح أمامهم طريقة للتخلص منها إلا بالنار.

أيهما أهون علينا -أخي القارئ- التطهير في الدنيا أم التطهير في الآخرة بالنار والعياذ بالله؟!

ألم يقل رسول الله ﷺ: «**مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ، وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**»(١).

وقال ﷺ: «**مَا يَزَالُ البَلاَءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ**»(٢).

وهناك طائفة أخرى من العباد الطائعين لربهم، يريد سبحانه أن يكافئهم برفع درجاتهم في الجنة، ولكن أعمالهم لا يمكنها أن ترقى بهم إلى هذه الدرجات، فكان الابتلاء وسيلة يستخرج الله عَزَّوَجَلَّ من قلوب هؤلاء ألوانًا من العبودية من ذل وانكسار وفقر واضطرار ما كانت لتخرج من قلوبهم إلا من خلال هذا الابتلاء.

ويؤكد على هذا المعنى القاضي عياض في كتاب «الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ»، فيقول: «فإن قيل: فما الحكمة في إجراء الأمراض وشدَّتها عليه ﷺ وعلى غيره من الأنبياء على جميعهم السلام؟ وما الوجه فيما ابتلاهم الله به من البلاء، وامتحانهم بما امتُحنوا به، كأيوب، ويعقوب، ودانيال، ويحيى، وزكريا، وإبراهيم، ويوسف،

(١) البخاري في المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض (برقم: ٥٦٤٢)، مسلم في البر، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض (برقم: ٢٥٧٣).

(٢) الترمذي في الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء (برقم: ٢٣٩٩)، وبنحوه في الموطأ (١/ ٢٣٦ برقم: ٥٥٦) في الجنائز، باب في الحسبة على المصيبة.

وغيرهم، صلوات الله عليهم، وهم خيرته من خلقه وأحباؤه وأصفياؤه؟

فاعلم- وفقنا الله وإياك- أن أفعال الله تعالى كلها عدل، وكلماته جميعها صدق، لا مبدل لكلماته، يبتلي عباده كما قال تعالى لهم: ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤]. فامتحانه إياهم بضروب المحن زيادة في مكانتهم، ورفعة في درجاتهم، وأسباب لاستخراج حالات الصبر والرضا، والشكر والتسليم، والتوكل، والتفويض، والدعاء، والتضرع منهم، وتأكيد لبصائرهم في رحمة الممتحنين، والشفقة على المبتلين، وتذكرة لغيرهم، وموعظة لسواهم ليتأسَّوا في البلاء بهم، فيتسلُّوا في المحن بما جرى عليهم، ويقتدوا بهم في الصبر، ومحوٌ لهَنَّاتٍ فرطت منهم، أو غفلات سلفت لهم، ليلقوا الله طيبين مُهذَّبين، وليكون أجرهم أكمل، وثوابهم أوفر وأَجْزل»[(١)].

جاء في الأثر: إن الله تعالى ليصيب العبد بالأمر، وإنه ليحبه، لينظر كيف كان تضرُّعه إليه [(٢)].

أخي ..

إن بعض الناس لا يرغب في نزول المطر لأنه يراه عائقًا أمام حركة السير، وسببًا لبعض الحوادث.

ولكن المطر-في حقيقته- من أَجَلِّ صور الرحمة الإلهية بالناس، فيه ينبت الزرع وتحيا الحياة، وترتوي المخلوقات، وليس معنى عدم استشعار البعض لهذه الحقيقة أن يتوقف نزول المطر-رحمة بهم على حد زعمهم- بل إن الرب الرحيم يرى المصلحة العامة لعباده فُيقدِّر الأقدار، ويحرك الأحداث من أجل تحقيقها.

---

(١) الشفا للقاضي عياض (٢/ ١٧٨).

(٢) حلية الأولياء (٤/ ١٨٠) في ترجمة كردوس بن هانئ والمحبة للجنيد (برقم: ٧٣).

فالابتلاء وإن كان في ظاهره الضيق والعنت إلا أنه يحمل في طياته رحمات كثيرة: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

عسى ربكم أن يرحمكم

يقص لنا القرآن العظيم في سورة الإسراء عن بني إسرائيل، وما سيحدث لهم في المستقبل، وكيف أن الله عَزَّوَجَلَّ سيرسل عليهم عبادًا له سبحانه مرتين فيسومونهم سوء العذاب، يحررون المسجد الأقصى، ويتبرون علوهم تتبيرًا شديدًا.

ثم نجد تعقيب القرآن على المرة الثانية بكلمات قد لا تستوعبها عقولنا، تأمل معي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ [الإسراء:٧، ٨].

ما هي الرحمة في الآية؟! إنها تصف عذابًا ينزل ببني إسرائيل وتحطيمًا لعلوهم!

إنها رحمة الله المربي العليم الخبير بعباده، إن تحطيم علوهم وكسر شوكتهم فيه رحمة من الله إن أحسنوا فهمها، فإن هذا يساعدهم على التخلص من كبرهم وعلوهم المزعوم وتوهمهم أنهم شعب الله المختار، فإن فعلوا عادوا عبادًا صاغرين لله عَزَّوَجَلَّ مسلمين له، ودخلوا في زمرة المسلمين.

الشفقة الإلهية

ثم تأمل معي هذا الحديث لتدرك بعضًا من أبعاد الشفقة والرأفة الإلهية بعباده والتي تزداد وتزداد عند ابتلائهم.

عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا مَاتَ وَلَدُ العَبْدِ قَالَ**

اللهُ لِـــمَلاَئِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْــدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُـــمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ اللهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْـحَمْدِ»(١).

أما يوم القيامة فالتكريم الخاص ينتظر أهل البلاء الذين نجحوا في مادة الصبر. يقول رسول الله ﷺ:

«يَــوَدُّ أَهْلُ العَافِيَةِ يَــوْمَ القِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ البَلاَءِ الثَّــوَابَ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ فِي الدُّنْيَا بِالـمَقَارِيضِ»(٢).

الابتلاء بالذنب والحرمان من الطاعة

ومن المظاهر العجيبة للرحمة الإلهية ابتلاؤه لعباده بالذنب، والحرمان من الطاعة، بتركهم لأنفســهم وعدم إعانتهــم وتوفيقهم للقيام بالطاعــة والإقلاع عن الذنب، فيستشــعروا وقتها مدى فضل ربهم عليهم، وأنهم به لا بأنفسهم، وأنه لو تخلى عنهم طرفة عين لهلكوا، ولضلوا، ولوقعوا في أشد المعاصي.

وفي المقابل لو اســتمر إمدادهم بالتوفيق والإعانة اللازمة للقيام بالطاعة، وترك المعصيــة، فمن المتوقــع أن يتسرب إلى نفوســهم داء العُجب، فيعجبــوا بأعمالهم، وبصلاحهم، ويغتروا بذلك، ويظنوا أن لهم مكانة خاصة عند الله بهذا الصلاح وهذه الأعمال، ويحتقروا غيرهم من المقصرين، فتكون هذه الطاعات سببًا لارتدائهم رداء الكبر؛ ومن ثمَّ استدعاؤهم لغضب الله وعقابه الـمُستحق للمتكبرين.

---

(١) الترمذي في الجنائز، باب فضل المصيبة إذا احتسب (برقم :١٠٢١)، ابن حبان (٧/ ٢١٠ برقم: ٢٩٤٨).

(٢) الترمذي في الزهد، باب ما جاء في ذهاب البصر(برقم: ٢٤٠٢).

لذلك كان الابتلاء بالذنب، والحرمان من الطاعة من لطف الله الخفي بعبده، بل من دلائل حبه له أحيانًا.

جاء في الحديث: «**يقول اللهُ عَزَّوَجَلَّ: وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْـمُؤْمِنِينَ لَمَنْ يَسْأَلُنِي الْبَابَ مِـنَ الْعِبَادَةِ، فَأَكُفُّهُ عَلَّهُ أَلا يَدْخُلَهُ عُجْبٌ، فَيُفْسِـدَهُ ذَلِكَ، إِنِّي أُدَبِّرُ أَمَرَ عِبَادِي بِعِلْمِي بِقُلُوبِهِمْ، إِنِّي عَلِيمٌ خَبِيرٌ**»[١].

ولعلنا بذلك ندرك مغزى قول رسـول الله ﷺ: « **لَوْ لَمْ تَكُونُوا تُذْنِبُونَ لَخَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ: الْعُجْبَ الْعُجْبَ** »[٢].

ومما يؤكد هذا المعنى ما قاله ﷺ للصحابة: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَكُونُونَ عَلَى كُلِّ حَالٍ عَلَى الْـحَالِ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ عِنْدِي لَصَافَحْتُمُ الْـمَلَائِكَةَ بِأَكُفِّكُمْ، وَلَزَارَتْكُمْ فِي بُيوتِكُمْ، وَلَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَجَاءَ اللهُ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ**»[٣].

الرحمة الواسعة

إن رحمة الله بعباده ولطفه الخفي بهم ليس له حدود ولا يمكن للعقل البشري أن يدرك أبعاده، ويكفي أنه سبحانه وتعالى كتب على نفسه الرحمة، ففي الحديث « **إِنَّ اللهَ حِينَ خَلَقَ الخَلْقَ كَتَبَ بِيَدِهِ عَلَى نَفْسِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي**».[٤]

وجاء في الأثر أن بني إسرائيل قالت لموسـى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**هَـلْ يُصلِي رَبُّك؟ قَالَ**

(١) شرح السنة للبغوي (٥/ ٢٣ برقم: ١٢٥٠).

(٢) البيهقي في شعب الإيمان (برقم: ٧٢٥٥) ٥/ ٢٤٥٧، مسند البزار (١٣/ ٣٢٦ برقم: ٦٩٣٦).

(٣) الترمذي في صفة الجنة (برقم: ٢٥٢٦) البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٢٤٠٩ برقم: ٧١٠١).

(٤) الترمذي في الدعوات، باب (١٠٠) (برقم: ٣٥٤٣) وبنحوه البخاري في التوحيد، باب قول الله «ويحذركم الله نفسه» (برقم: ٧٤٠٤)، ومسلم في التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (برقم: ٢٧٥١).

مُوسَى: اتَّقُوا اللهَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالَ اللهُ: يَا مُوسَى، مَاذَا قَالَتْ لَكَ قَوْمُكَ؟ قَالَ: يَا رَبِّ قَدْ عَلِمْتَ، قَالُوا: هَلْ يُصلِي رَبُّك؟ قَالَ: فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ صَلاتِي عَلَى عِبَادِي أَنْ تَسْبِقَ رَحْمَتِي غَضَبِي، لَوْلا ذَلِكَ لأَهْلَكْتُهُمْ»[1].

ومن أعظم الأدلة التي تؤكد هذا المعنى: رحمته سبحانه بالعصاة له والكافرين به، فهو سبحانه لم يمنع عنهم رزقه رغم عصيانهم وابتعادهم عن طريقه، ولم يُعجل نهايتهم فلعلهم يعودون إليه في لحظة من اللحظات: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [البقرة: ١٤٣].

ويكفينا في ذلك ما حدث من فرعون من طغيان فاق الحدود، ومع ذلك أمهله الله عَزَّوَجَلَّ وأرسل إليه موسى وهارون -عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ-: ﴿**ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾**﴾ [طه: ٤٣، ٤٤] فظلَّا يحاورانه ويثُبتان له بالأدلة الدامغة ألوهية الله وربوبيته على خلقه، ولكنه أبىَ واستكبر.. وكان ما كان من تتبعه لموسى في البحر إلى أن أغرقه الله عَزَّوَجَلَّ.. في هذه اللحظات -لحظات النهاية- وبعد أن أصبح الغيب عنده كالشهادة قال: ﴿**ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ**﴾ [يونس: ٩٠].

شهادة لا تنفع في هذا الوقت، وقت الغرغرة ونزع الروح، ورؤية الملائكة، ومع ذلك فإن جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ كان له موقف عجيب انطلق من إدراكه لمدى سعة الرحمة الإلهية، وانطلق كذلك من بغضه الشديد لفرعون وأفعاله الطاغية، وكبره وإصراره على الكفر رغم ما رأى من آيات مبصرة.

يقول رسول الله ﷺ: «**لَمَّا أَغْرَقَ اللهُ فِرْعَوْنَ قَالَ: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ**

(١) كنز العمال (٤/ ٢٥٢ برقم: ١٠٣٩٩).

﴿ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] فَقَالَ جِبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ فَلَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا آخُذُ مِنْ حَالِ البَحْرِ فَأَدُسُّهُ فِي فِيهِ مَخَافَةَ أَنْ تُدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ»[١].

رب رءوف

أخي القارئ، لعلك قد لمست مدى شفقة أمك عليك وهي ترغِّبك في تناول وجبة الإفطار قبل ذهابك لمدرستك أو عملك خوفًا عليك من أن يداهمك التعب والإرهاق.

وأين هي رحمة أمك وعطفها -مهما بلغا- من رحمة ورأفة الرءوف الرحيم، الذي يعاملك ويعاملنا جميعًا بشفقة تفوق وتفوق شفقة أمك بك.

فمع أنه- عَزَّوَجَلَّ- يكلفنا بأداء العبادات ليجزينا عليها الجنة، إلا أنه لا يريد لنا أن نقع في مشقة أو حرج من أدائها: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

يطالبنا بالصوم، ثم يرغبنا في التعجيل بالفطر، فيكفي الصيام حتى المغرب، ولا داعي للتأخير أكثر من ذلك حتى لا يزداد الإرهاق، ففي الحديث القدسي: قال الله عَزَّوَجَلَّ: «إِنَّ أَحَبَّ عِبَادِي إِلَيَّ أَعْجَلُهُمْ فِطْرًا»[٢].

ويحثنا كذلك على السحور، وعلى تأخيره قدر المستطاع لينشط به الصائم ويقوى، ويهون عليه صيام يومه.

قال رسول الله ﷺ: «تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً»[٣].

---

(١) الترمذي في التفسير، باب ومن سورة يونس (برقم: ٣١٠٧، ٣١٠٨)، الإمام أحمد في المسند (١/ ٣٠٩ برقم: ٢٨١٦).

(٢) رواه الترمذي في الصوم، باب ما جاء في تعجيل الإفطار (برقم: ٧٠٠).

(٣) البخاري في الصوم، باب بركة السحور من غير إيجاب (برقم: ١٩٢٣)، مسلم في الصيام، باب =

ربك -أخي- علمنا على لسان نبيه ﷺ كلمات نقولها حتى لا يصيبنا مكروه، ففي الحديث: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ فِي صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ وَمَسَاءِ كُلِّ لَيْلَةٍ: بِسْمِ اللهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَيَضُرَّهُ شَيْءٌ**»(١).

وعند الخروج من المنزل ومواجهة أحداث الحياة أوصاك أن تقول: «**بِسْمِ اللهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، فيُقَالُ لَك: كُفِيتَ، وَوُقِيتَ، وَتَنَحَّى عَنْك الشَّيْطَانُ**»(٢).

وتأمل معي هذه الوصية النبوية التي تقطر شفقة ورحمة إلهية:

«**مَنْ لَزِمَ الاسْتِغفَارَ جَعَلَ اللهُ لَه مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخرَجًا، ومِن كُلِّ هَمٍّ فرَجًا، ورزقَه مِن حَيثُ لا يَحتَسِب**»(٣).

ربك أوصاك على لسان نبيه بأن تميط الأذى عن الطريق كيلا يتسبب وجوده في إيذاء الناس؛ شفقة عليهم ورحمة بهم.

ولكي يشجعنا على تنفيذ هذا الأمر أعد مكافأة خاصة لمن يقوم بذلك، قال

= فضل السحور وتأكيد استحبابه برقم: ١٠٩٥)، الترمذي في الصوم، باب ما جاء في فضل السحور (برقم: ٧٠٨).

(١) الترمذي في الدعوات، باب ما جاء إذا أصبح وإذا أمسى (برقم: ٣٣٨٨)، أبو داود في الأدب، باب ما يقول إذا أصبح (برقم: ٥٠٨٨)، ابن حبان (٣/ ١٣٢ برقم: ٨٥٢) كتاب الرقاق، باب ما يجب على المرء من الإحراز بذكر الله جل وعلا في أسبابه دون الإتكال على قضاء الله فيها.

(٢) الترمذي في الدعوات، باب رقم (٣٤) (برقم: ٣٤٢٦)، أبو داود في الأدب، باب ما يقول إذا خرج من بيته (برقم: ٥٠٩٥).

(٣) أبو داود في الصلاة، باب في الاستغفار (برقم: ١٥١٨)، مسند أحمد (١/ ٢٤٨ برقم: ٢٢٣٤) ابن ماجه في الأدب، باب الاستغفار (برقم: ٣٨١٩).

رسول الله ﷺ: «**كَانَ عَلَى الطَّرِيقِ غُصْنُ شَجَرَةٍ يُؤْذِي النَّاسَ فَأَمَاطَهَا رَجُلٌ، فَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ**»(١).

فأي شفقة ورحمة تلك التي يغمرنا الله بها؟!

رفع الحـــرج

ومن مظاهر رحمة الله وشفقته بعباده رفع الحرج عنهم من خلال تخفيف العبادات عند مظنة وقوعهم في مشقة.

فالصلوات الخمس التي لا يستغرق أداؤها وقتًا طويلًا، والتي نستفيد نحن منها لتسكب داخلنا الطمأنينة، والســلام الداخلي، ومع ذلك، ففي وقت السفر، ومظنة التعب، فإنه ســبحانه يخفف عن المسافرين عدد ركعات الصلوات الرباعية ليجعلها ركعتين، ويســمح لهم كذلــك بالجمع بين الصلوات تخفيفًا عليهــم، ورفعًا للحرج عنهم، مع العلم بأنه ليست كل الأسفار تسبب تعبًا ومشقة ولكنها الرحمة الإلهية التي تغمر الجميع: ﴿**يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ**﴾ [البقرة: ١٨٥].

ولعلمه سبحانه بأن البعض قد يتحامل على نفسه ولا يأخذ بهذه الرخص فلقد أخبرنا على لســان نبيه بأنه- ســبحانه- يحــب أن تؤتى رخصه كما يحــب أن تؤتى عزائمه(٢).

ومن مظاهر رفع الحرج قول رسول الله ﷺ: «**وُضِعَ عَنْ أُمَّتِي الْـخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ،**

(١) ابن ماجه كتاب الأدب، باب إماطة الأذى عن الطريق (برقم: ٣٦٨٢).

(٢) البزار (برقم: ٩٩٠)، ابن حبان (٢/ ٦٩ برقم: ٣٥٤)، أبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ٨٧٦)، فيض القدير (٢/ ٢٩٢، ٢٩٣ برقم: ١٨٧٩).

وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»[١].

ومنها كذلك: عدم محاسبتنا عما نحدث به أنفسنا من مخالفات -وما أكثرها- يقول رسول الله ﷺ: **«إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ نَفْسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ بِهِ أَوْ تَكَلَّمْ بِهِ»**[٢].

ومن مظاهر رفع الحرج أيضًا مراعاته سبحانه للحاجات الفطرية للناس وحالات الضعف البشري التي تعتريهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ**﴾ [البقرة: ١٨٧].

ومنها السماح للناس وهم في رحلة الحج أن يبيعوا ويشتروا ويتزودوا بما يريدونه: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ [البقرة: ١٩٨].

لا تنس أنك عبد

إن العبد -أي عبد- من المفترض عليه أن يقوم بالتكاليف التي يطلبها منه سيده لمجرد أنه عبد، وأن هذا سيده، وليس له أيضًا أن يسأل عن سبب تكليف سيده له بذلك، ولا أن ينتظر أجرًا عليه؛ لأنه يخدمه بموجب أنه عبد عنده.

أي أننا وإن افترض الله علينا ما شاء من عبادات فهذا ما تقتضيه عبوديتنا له سبحانه، ويقتضيه كونه مستحقًّا للعبادة، وعندما نراه -جل شأنه- يخفف عنا بعض التكاليف، ويرفع بعضها في أوقات معينة، مراعاة لظروف البعض، فهذا منتهى الرحمة والرأفة من الرب بعبيده المكلفين في الأصل بطاعته وعبادته.

---

(١) الطبراني في الأوسط (برقم: ٨٢٧٢).

(٢) الطبراني في الكبير (١٨/ ٢١٦ برقم: ٥٣٩)، وانظر مجمع الزوائد كتاب الحدود والديات باب (٧)، وباب (٨) (١٣/ ٦١١-٦١٣)، ومسند أبو يعلى الموصلي (١١/ ٢٧٨ برقم: ٦٣٩٠).

شريعته كلها رحمة

ومما يؤكد هذا المعنى أن أحكام الشريعة التي أمرنا الله أن نتحاكم إليها ونتعامل بها ما هي إلا مظهر عظيم من مظاهر رحمته بعباده، ألم يقل سبحانه لرسوله محمد ﷺ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٧] فالحدود على سبيل المثال لو تأملناها جيدًا لوجدناها بمثابة السور الشائك الذي يحمي بناء المجتمع المسلم، والذي لا بد من وجوده وإلا ضاع الأمن والأمان والثقة والاستقرار: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩].

والجهاد في سبيل الله ما هو إلا مظهر عظيم من مظاهر الرحمة بعموم الناس.

فإن قلت: كيف يكون القتل والدماء رحمة بالناس؟!

يكون رحمة بالناس لأن من خلاله يزيل المسلمون العوائق التي تحول بينهم وبين دعوة الناس الذين لا يعلمون شيئًا عن الإسلام، فطغاتهم يشكلون حائلًا يحول بينهم وبين وصول الدعوة إليهم: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٣].

تقليل الأعمال في أعيننا

ومن مظاهر رحمة الله بعباده أنه سبحانه يريد منهم أن يؤدوا ما أمرهم به كي يدخلهم الجنة، ولأنه يعلم كراهية نفوسنا للتكليف وحبها للراحة، فإنك تجده يقلل الأعمال المطلوبة في أعيننا ليسهُل علينا أداؤها، فيقول لنا عن الصيام: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ ﴾ [البقرة: ١٨٣، ١٨٤] تأمل عبارة: ﴿ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ ﴾ وما فيها من معاني الاستدراج وتيسير العبادة.

ونفس الأمر بالنسبة للحج: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

أما بالنسبة للمحرمات فهو سبحانه يخبرنا بأن كل الأطعمة والأشربة مباحة لنا إلا بعض الأصناف اليسيرة، ولو اضطررنا لتناولها فلا إثم علينا:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٥].

الرحمة المدَّخرة

إن الحديث عن مظاهر الرحمة الإلهية لا ينتهي، وكيف له أن ينتهي وقد أخبرنا سبحانه بأنه: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۚ﴾ [الأنعام: ١٢]، فرحمته سبحانه قد شملت كل شيء: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

ولعل أفضل ما نختم به الحديث عن هذا المظهر العظيم من مظاهر حب الله تعالى هذه البشرى التي حملها إلينا رسول الله ﷺ عندما أخبرنا بأن الله عَزَّوَجَلَّ قد خلق مائة رحمة جعل جزءًا واحدًا منها للدنيا يتراحم بها الناس فيما بينهم، أما بقية المائة (التسعة وتسعون جزءًا) فقد ادخرها- سبحانه- ليوم أحوج ما نكون فيه إلى الرحمة ليوم القيامة.

قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللهَ خَلَقَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِائَةَ رَحْمَةٍ كُلُّ رَحْمَةٍ طِبَاقَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجَعَلَ مِنْهَا فِي الْأَرْضِ رَحْمَةً، فَبِهَا تَعْطِفُ الْوَالِدَةُ عَلَى وَلَدِهَا، وَالْوَحْشُ

وَالطَّيْرُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَكْمَلَهَا بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ»[١].

وكذلك قوله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَغْفِرَنَّ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْفِرَةً لَا تَخْطُرُ عَلَى قَلْبِ بِشْرٍ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَغْفِرُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْفِرَةً يَتَطَاوَلُ لَهَا إِبْلِيسُ رَجَاءَ أَنْ تُصِيبَهُ**»[٢].

• • •

(١) رواه مسلم في التوبة، باب في سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه (برقم: ٢٧٥٣).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٥/ ٢٥٠ برقم: ٥٢٢٧)، انظر كنز العمال (برقم: ١٠٣٥٩).

سابعًا: من مظاهر حب الله لك

تيسير طريقك إلى التوبة والرجـــــوع إليـــه

كان رجل في بني إسرائيل اســمه «الكِفْل»، وكان معروفًا بين الناس بفُحشــه وإجرامــه، وذات ليلة وبينما هو في منزله إذ ســمع طرقًا على بابــه، فقام ليفتحه فإذا بامرأة يقطــر منها الحياء وقد جاءته لتطلب منه أن يقرضهــا مبلغًا من المال لحاجتها الضروريــة إليه، فيوافــق على إقراضها بــشرط أن تمكنه من نفســها، فتضطر المرأة للموافقة، وعندما يقترب منها إذ بها ترتعد، فيسألها عن السبب، فتجيبه بأنها لم تفعل هذا من قبل، وإنها تخاف من غضب الله عليها.

هنــا توقف الكِفل عما كان ينوي فعله، وقال لها: من الذي ينبغي له أن يخاف من غضب الله: أنا أم أنت؟! ثم أعطاها ما تريد من مال، وتركها تنصرف، والندم يعتصر قلبه على آثامه التي اقترفها، وعلى اســتخفافه بأوامر ربه، ثم توجه إلى الله بهذا القلب المنكسر يسأله العفو والصفح والتوبة.

هل انتهت القصة على هذا الوضع؟!

لا، فقد حدث أن جاءه الموت وهو في هذه الحالة، فلما أشرقت الشــمس وجاء الصباح، فوجئ الناس؛ جيرانه ومعارفه الذين تركــوه بالليل، وهم يعلمون عنه ما يعلمون، فوجئوا جميعًا بأن باب داره مكتوب عليه «إن الله قد غفر للكِفل».

لم يصدقوا مــا قرؤوه، فهرعوا إلى نبيِّهم، فأوحــى الله إليه بما حدث، فأخبرهم

خبره، فتلقوه فاغرين أفواههم، غير مصدقين ما حدث.

بلا شـــك -أخي القارئ- أن هناك دروسًـــا كثيرة تحملها هذه القصة، لعل من أهمها أن الله عَزَّوَجَلَّ عندما وجد من الكِفل هذه التوبة الصادقة، وهذا الندم، أمر ملك الموت بأن يأخذه على هذا الحال ليُنهي حياته نهاية سعيدة، فربما -كما في علم الله- أنه إذا ما استمرت حياته لعاد مرة أخرى لغيه وعصيانه.

ومن هذه الدروس كذلك معرفة مـــدى حب الله العظيم لعباده، فكتابة العبارة على الباب ما هي إلا رســـالة للناس جميعًا بأن رحمة الله واســـعة.. تســـع الجميع، فلا ينبغي لمذنب مهما كان جُرمه أن ييأس أو يقنط من بلوغها، والدليل أن الكِفل قد غُفرَ له.. إنها رسالة تقول لكل فرد: أقبل ولا تخف، فربك ينتظرك.

ولا تقتصر القصة على إظهار ســـعة رحمة الله ومغفرته، بل وده وحلمه وستره، فلقد مات الكِفل مســـتورًا وليس ملعونًا من جيرانه وأهل بلدته.. فأي حب هذا من الرب لعباده؟! وكيف لو كان الكفل عبدًا صالحًا!

وكيـــف لا يكون الأمر كذلك، والله عَزَّوَجَلَّ يحب عبـــاده جميعًا، ويريد لهم الخير، ودخول الجنة، وينتظر من أي منهـــم التفاتة صادقة إليه ليقبل عليه، ويعفو عما مضى منه.

ومما يؤكد هذا المعنى ما حدث لقاتل المائة نفس:

قال رســـول الله ﷺ: «**كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْـــعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ، فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟**

فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَ فَاعْبُدِ اللهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ، فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْـمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ، فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ»(١).

وفي رواية: «**فَأَوْحَى اللهُ إِلَى هَذِهِ: أَنْ تَبَاعَدِي، وَإِلَى هَذِهِ: أَنْ تَقَرَّبِي، وقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَهما، فَوَجَدُوهُ إِلَىَ هَذِه أَقرب بِشِبرٍ فَغُفِرَ لَه**».

لا يحوجنا إلى المشي الكثير

نعم -أخي القارئ- إن ربك ينتظر منك أي بادرة صادقة في العودة إليه، ليقترب منك ويقترب، ولا يحوجك إلى المشي الكثير، كما في الحديث القدسي: «**إِذَا تَقَرَّبَ العَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِذَا أَتَانِي مَشْيًا أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**»(٢).

يعلق الإمام النووي على هذا الحديث فيقول:

«أي: من تقرَّب إليَّ بطاعتي تقربت إليه برحمتي والتوفيق والإعانة، وإن زاد زدت، فإن أتاني يمشي وأسرع في طاعتي أتيته هرولة، أي: صببت عليه الرحمة،

(١) البخاري في أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار (برقم: ٣٤٧٠)، مسلم في التوبة، باب قبول توبة القاتل (برقم: ٢٧٦٦)، ابن ماجه في الديات، باب هل لقاتل مؤمن من توبة؟ (برقم: ٢٦٢٢).

(٢) البخاري (برقم: ٧٥٣٦)، ومسلم (برقم: ٢٦٧٥).

وسبقته بها، ولم أحوجه إلى المشي الكثير في الوصول إلى المقصود»[١].

فهل توافقني -أخي- أن هذا الحديث وغيره مما سبق ذكره يدل على إرادة الله عَزَّوَجَلَّ لعباده أن يعودوا إليه.. وأنه سبحانه يفرح بهذه العودة أشد من فرحتهم هم؟

ولو كُشفت الحُجُب، وتأكد الشاردون عن الله من هذه الحقيقة لماتوا خجلًا منه سبحانه.

بابه مفتوح للجميع

أخي .. ما تعليقك على قول رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**»؟[٢].

ألا يكفيك دليلًا على حب ربك لك أن جعل بابه مفتوحًا أمامك ليل نهار، وبدون وجود حاجب ولا واسطة، فمتى شئت، ومتى رغبت في الدخول عليه دخلت؟!

ألم يكن من الممكن أن يكون الدخول على الله ودعاؤه في وقت محدد بالليل أو بالنهار، وعلى من يريد أن يُجاب طلبه أن يجتهد في تحري هذا الوقت كما يحدث مع كل صاحب سلطان.

ولكنه سبحانه وتعالى لم يشأ أن يفعل ذلك، فلم يغلق بابه أبدًا في وجه أحد مهما كان جُرمه.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٧/ ٢).

(٢) مسلم كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت (برقم: ٢٧٥٩).

نعم، مهما كان جُرمه، ومهما كان وقت عودته أو حالته.

وليس ذلك للمسلمين فحسب بل لجميع عباده من يهود ونصارى وملحدين وبوذيين، ومن منافقين، وفاجرين، وقطاع طرق، ومجرمين.

أليس كل واحد من هؤلاء له مكان في الجنة يريد الله له أن يشغله، ولا يتركه؟!

فإن كنت تشك في هذه الحقيقة فتأمل معي توجيهه لرسوله الكريم: ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ** ﴾ [الأنفال: ٣٨] هكذا بكل بساطة.

وتأمل خطابه للمنافقين، فبعد أن حذرهم وخوفهم من مآل أفعالهم عاد فلم ييئسهم من رحمته بل جعل الطريق أمامهم ممهدًا للتوبة والعودة إليه: ﴿ **إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ١٤٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٤٦** ﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦].

وبعد ذلك يأتي التأكيد على أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يريد أن يعذب أحدًا من خلقه: ﴿ **مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا** ﴾ [النساء: ١٤٧].

وتأمل كذلك -أخي القارئ- خطابه للذين يعذبون الناس، الطواغيت الظلمة، هؤلاء لو تابوا لتاب عليهم: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ** ﴾ [البروج: ١٠].

.. فرغم فعلتهم النكراء لن يغلق دونهم باب التوبة.

والذيــن يُروِّعون الآمنين ويقطعــون الطريق حدَّد الــشرع جزاءهم: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣]. ولكن لو تاب هؤلاء اللصوص القتلة لتاب الله عليهم كما جاء في الآية التي تليها:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٣٤].

وكذلــك الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

أقبل ولا تخف

أخــي، إن ربك ينتظرك -وينتظرنا جميعًا- يناديك: أقبل ولا تخف.. متى جئتني قبلتُــك، وعلى أي حال تكون فيها: «**يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلاَ أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّــمَاءِ ثُمَّ اسْــتَغْفَرْتَنِي غَفَــرْتُ لَكَ، وَلاَ أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُــرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**»[1].

نعم يا أخي إن مغفرته سبحانه تسع كل ذنوبك، وكل ذنوبنا، كل ما هو مطلوب

(١) الترمذي في الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار (برقم: ٣٥٤٠)، والترهيب والترغيب (٢/ ٣٠٩ برقم: ٢٥٠٠).

منك أن تُقبل عليه بصدق، أن تعتذر له عما مضى من ذنوب وتقصير.

فإن قلت: ولكن ذنبي كبير .. أكبر مما يتخيله أحد.

لا يا أخي، لا تقل هذا، فماذا فعلت؟!

هل سرقت، هل زنيت، هل أشركت، هل...

مهما فعلت فبابه مفتوح لك .. أتدري لماذا؟

لأنه يريد أن يتوب عليك: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧].

ولماذا يريد أن يتوب عليك؟

ليدخلك الجنة، دار أبيك، والتي فيها جزء مخصص لك: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وليس أدل على ذلك من فرحته سبحانه الشديدة عندما يتوب عبد من عباده ولو كان من أشد المعاندين له.

تأمل معي قول رسول الله ﷺ: «**للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ**»[(١)].

وإليك كذلك هذا الحديث العجيب، قال رسول الله ﷺ: «**للهُ أَشَدُّ فرَحًا بتَوبَةِ**

(١) البخاري في الدعوات، باب التوبة (برقم: ٦٣٠٩)، مسلم في التوبة، باب الحض على التوبة (برقم: ٢٧٤٧).

عَبْدِهِ مِنَ العَقِيمِ الوالِدِ، ومِنَ الضَّالِّ الواجِدِ ومِنَ الظَّمآنِ الوَارِدِ»[١].

يعلمنا ما نقوله لنتوب

لما عصا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ربه، ندم ندمًا شديدًا، ولكنه لم يعرف كيف يعبر عن ندمه واعتذاره لربه، فرأى منه الله هذه الحال فدلَّه -الرحيم- على ما يقوله له، ليختصر عليه الطريق: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

وكذلك ما حدث مع بني إسرائيل، فبعد أن ارتكبوا كبائر الذنوب، وعبدوا العجل، وقالوا لنبيهم: أرنا الله جهرة و.. أراد الله أن يتوب عليهم فدلهم على وسيلة ذلك والألفاظ التي يقولونها:

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨].

فأي رب غفور رحيم هو ربنا؟!

يعلمنا كلمات نقولها، وأدعية ندعوه بها تحمل معاني عظيمة، ثم يخبرنا بأننا لو قلناها بصدق غفر لنا ذنوبنا وأعطانا مرادنا.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

هذه الكلمات النورانية لو أردنا التعبير عما تحمله من معانٍ بكلمات من عندنا

(١) رواه ابن عساكر في أماليه عن أبي هريرة ... وأورده الهندي في كنز العمال (برقم: ١٠١٦٥).

فكم عبارة سنقولها؟ وهل سترقى تلك العبارات فتليق ببلاغة الآيات؟!

ثم إن هذه الآيات وغيرها من الأدعية مما ورد على لسان المؤمنين، من الذي أنزلها؟!

أليس هو الله عَزَّوَجَلَّ؟!

ومن هم هؤلاء المؤمنون الذين يقولونها؟!

إنهم ليسوا أشخاصًا بعينهم، ولكنها نموذج يقدمه الله لنا لكي يختصر علينا طريق اختيار الكلمات والعبارات التي تنال رضاه، وتستفتح باب فضله وكرمه، فيجيب علينا -حين نرددها- بفتح خزائن عفوه وفضله ورزقه.

وقد ورد أن العبد حين يقرأ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ يجيب سبحانه: «قَدْ فَعَلْتُ»، فإذا قال: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ يجيب الله: «قَدْ فَعَلْتُ» وهكذا[1].

فانظر إلى مدى حب الله لنا؛ يعلمنا ما نقول؛ ليجيبنا بعد القول: قد فعلت!

ومن ذلك ما جاء في خطاب الله لنبيه ﷺ في حق بيعة النساء من المؤمنات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢] تأمل قوله تعالى: واستغفر لهن الله!

(١) انظر صحيح مسلم كتاب الإيمان، باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق (برقم: ١٢٦).

ولماذا لا يأمره سبحانه أن يوجههن بالاستغفار لأنفسهن؟

ربنا يعلم قدر حبه لنبيه، وأن استغفاره هو أولًا أنفع لهن وهو مراده سبحانه أن يغفر لهن.

عدم الاستقصاء

أرأيت لو أن زميلًا لك قد أساء إليك إساءات بالغة، وارتكب في حقك مخالفات جسيمة، ثم جاءك بعد أن أفسد وأفسد ليعتذر لك عما فعله، أليس أدنى ما يتوقع منك ساعتها أن تجلس معه وتعاتبه، وتطلب منه إصلاح ما أفسده قبل قبول اعتذاره، وأن تأخذ منه المواثيق على ذلك؟!

ولكن الله عَزَّوَجَلَّ لا يفعل معنا ذلك، فهو يقبل منا الاعتذار -مهما كان حجم جرائمنا في حقه- دون استقصاء، كما حدث مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فبعد أن قتل القبطي، وقبيل هروبه من مصر قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ فبماذا أجاب الله؟ ﴿فَغَفَرَ لَهُ﴾ لماذا المغفرة بكل هذه السهولة؟ ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦].

لا يطالب أحدًا بإصلاح ما أفسده إلا إذا كان في حقوق الناس -رحمة بهم- أما ما كان في حقه سبحانه، فهو يتجاوز عنه .. لماذا؟!

لأنه لا يريد أن يضع أي عقبات أمام طريق التوبة.

يريد أن يجعل الطريق سهلًا ميسرًا للجميع دون استثناء.

يكفي أن يندم المرء على ما فعل، ويستغفر الله بصدق ويتوب إليه.

يكفي ذلك، فليس المطلوب منه تقديم كشف بالمخالفات التي ارتكبها، وكيف

سيصلحها.. تأمل معي قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ﴾ ما الذي سيحدث إن فعل ذلك؟ ﴿ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠]. لا يجده منتقمًا ولا يجده جبارًا. بل يجده فرحًا بتوبته؛ لأنه يحبه، وينتظر منه هذه التوبة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

يسهل علينا طريق التوبة

ولأنه سبحانه يحبنا ويريد لنا الجنة؛ لذلك فهو يسهل علينا طريق التوبة من كل جانب.

يطمئننا بأنه سيغفر لنا جميع ذنوبنا -مهما بلغت- وذلك بمجرد توبتنا: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

ويؤكد لنا رسول الله ﷺ على هذا المعنى فيما يحكي عن ربه تبارك وتعالى قال: «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ»[(١)].

يعني -كما يقول ابن رجب- ما دام على هذا الحال كلما أذنب استغفر[(٢)].

---

(١) البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ (برقم: ٧٥٠٧)، مسلم في التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب (برقم: ٢٧٥٨).

(٢) شرح الحديث لبيك اللهم لبيك لابن رجب (١٣٦).

أتدري ما الذي يغضب ربك غضبًا شديدًا؟

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يسأله عن سعة رحمة الله، فقال:

«جِئْتَ تَسْأَلُنِي عَنْ سِعَةِ رَحمَةِ اللهِ؟ وأُخْبِرُكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: مَا غَضِبْتُ عَلَى أَحَدٍ غَضَبِي عَلَى عَبْدٍ أَتَى مَعْصِيَةً فَتَعَاظَمَهَا فِي جَنْبِ عَفْوِي، فَلَوْ كُنْتُ مُعَجِّلًا الْعُقُوبَةَ أَوْ كَانَتِ الْعَجَلَةُ مِنْ شَأنِي لَعَجَّلْتُهَا لِلْقَانِطِينَ مِنْ رَحْمَتِي»(١).

لم تعلموا قدري لذلك أخطأتم في حقي

تخيل أن ابنًا من الأبناء قد أخطأ في حق أبيه، ويريد أبوه منه أن يعتذر ليسامحه على خطئه، فتراه يسهل عليه طريق الاعتذار، فيقول له: لعلك لم تدرك أن ما فعلته كان خطأ، ولعلك قد أخذتك الغفلة حينها، ولعلك ....، فيجد الابن نفسه مندفعًا إلى الاعتذار بعد أن شعر بالأمان من جانب والده.

أكثر من هذا يفعله الله معنا، تأمل قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [النحل: ١١٩].

وقوله: ﴿**كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [الأنعام: ٥٤].

إنها رسالة تطمين وترغيب تقول لنا: لقد أخطأتم واقترفتم السيئات لأنكم كنتم غافلين عني، جاهلين بقدري، فما عليكم إلا أن تستغفروني لأغفر لكم وأتوب عليكم.

---

(١) كنز العمال (٣/ ١٤٦ برقم: ٥٩٠١).

بل إنه سبحانه يأمر المؤمنين بأمور تساعد الكافرين ألا يزيدوا في طغيانهم ومعصيتهم يقول تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، الله عَزَّوَجَلَّ يصف فعلهم أنه سيكون بغير علم!! ولا يريد سبحانه لهم فعل هذا.

لننتهز الفرصة

أخي القارئ

وفي نهاية الحديث عن هذا المظهر العظيم من مظاهر حب ربك لك، ولسائر عباده، تبقى كلمة لا بد أن تُذكر في هذا المقام وهي: إنّ كل ما قيل في الصفحات السابقة عن ترغيب الله لعباده في التوبة وتيسيره لطريقها، ما هو إلا استدراج منه سبحانه لهم لكي يسارعوا بالفرار والعودة إليه؛ ومن ثمَّ يرزقهم الحياة الطيبة في الدنيا، والجنة في الآخرة: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥].

ولكن هب أن البعض لم يستفد من هذه الفرصة العظيمة التي أتاحها الله له، ولم يتب إليه أو يقبل عليه، وظل في غفلته يُمنِّي نفسه أنه سيفعل ذلك بعد حين.. بعد أن يحج، أو يزوج الأولاد، أو يخرج على المعاش... بلا شك أن هؤلاء سيندمون أشد الندم عندما تتسرب أعمارهم يومًا بعد يوم دون أن يشعروا، ثم يفاجؤون بملك الموت أمامهم قد جاءهم ليقبض أرواحهم؛ ومن ثمَّ ينغلق باب التوبة أمامهم.

ومن عجب أن الرب الرحيم حذرنا كثيرًا من ذلك الموقف كي لا نقع فيه: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزمر: ٥٤، ٥٥].

فلننتهز الفرصة، ولنستجب لنصائح ربنا، ولنبادر بالاستغفار والتوبة، والاستفادة من ثمارها في الدنيا قبل الآخرة: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ [هود: ٣].

ونختم الحديث عن هذا المظهر العظيم من مظاهر حب الله لعباده بقول رسول الله ﷺ: «**إِنَّ لِلتَّوْبَةِ بَابًا عَرْضُ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْهِ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ والْمَغْرِبِ لَا يُغْلَقُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِها**»(١).

• • •

(١) حسن، رواه الطبراني، وانظر جمع الجوامع (برقم: ٧٠٠٩) والجامع الصغير (برقم: ٢٣٧٨).

ثامنًا: من مظاهر حب الله لك
حلمه وصبره وستره لك

أخي

نعلم جميعًا أن الله عَزَّوَجَلَّ حي قيوم لا يغفل ولا ينام، أحاط بالناس جميعًا لا تختلط عليه اللغات، ولا يخفى عليه شيء ولو كان في قعر الجبال أو قاع البحار.

قريب منا جميعًا، يرى مكاننا، ويسمع كلامنا، ويعلم ما توسوس به أنفسنا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

لا يحدث شيء في أي مكان من الأرض إلا يعلمه سبحانه، ويحيط به علمًا: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

لا يغيب عنه -سبحانه- سقوط ورقة يابسة من شجرة وارفة في ليلة مظلمة داخل غابة من الغابات الكثيفة: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ومع هذا العلم وهذه الإحاطة فإنه سبحانه قادر مقتدر، لا يعجزه شيء أن يفعله إذا أراد أن يفعله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

كان معنا

يقينًا -أخي- أن الله عَزَّوَجَلَّ لم يغب عنا ولو للحظة من لحظات حياتنا: ﴿وَمَا

﴿تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١].

معنى ذلك أنه كان معي ومعك حين عصيناه.

كان معك حين أطلت النظر إلى غير محارمك من النساء.

كان معك وقت أن سمعت مؤذن الفجر ينادي للصلاة، فلم تجب النداء بل تكاسلت وتجاهلت، وأخلدت إلى النوم.

كان معك وأنت تجتهد في إقناع الآخرين بشيء تعلم في قرارة نفسك أنه غير حقيقي، وأنك تكذب عليهم.

كان معي ومعك وقت كل معصية عصيناها، وكل تقصير قصرناه، وكان يقدر -سبحانه- على أن يأخذ الواحد منا على الحال التي كان عليها.

كان يقدر أن يأخذه وهو يكذب.. وهو يطلق بصره.. وهو يحسد غيره.. يأخذه في لحظات شهادة الزور أو لحظات تطاوله على والديه أو ....

كان من السهل واليسير عليه سبحانه أن يأخذنا في هذه الأوضاع الشائنة: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٦٧].

ولكنه لم يفعل، بل تركنا نعصاه، ونقصر في حقه أكثر وأكثر.

ولكن لماذا لم يفعل ذلك وهو القادر المقتدر؟!

الإجابة واضحة؛ لأنه يحب عباده ويريد لهم أن يُنهوا حياتهم نهاية سعيدة؛ لذلك فهو يحلم ويصبر عليهم لعل لحظة تأتي عليهم يفيقون فيها من غفلتهم، ويتوبون إليه

فيتوب عليهم: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦].

تأمل معي قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ [النحل: ٤٥- ٤٧].

لكنه لم يفعل؛ لأنه كما جاء في ختام الآية الأخيرة: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٧].

نعم -أخي القارئ- فربنا رب حليم، صبور، لا يؤاخذ عباده بأفعالهم السيئة ولو فعل لما تنعم متنعم بيومه أو ليله ولتذوَّق الجميع العذاب الأليم: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ [الكهف: ٥٨].

جاء في الأثر: ما من ليلة اختلط ظلامها، وأرخى الليل سربال سترها، إلا نادى الجليل جل جلاله: «**مَنْ أَعْظَمُ مِنِّي جُودًا، وَالْخَلَائِقُ لِي عَاصُونَ وَأَنَا لَهُمْ مُرَاقِبٌ، أَكْلَؤُهُمْ فِي مَضَاجِعِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَعْصُونِي، وَأَتَوَلَّى حِفْظَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَمْ يُذْنِبُوا فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنِهِمْ، أَجْوَدُ بِالْفَضْلِ عَلَى الْعَاصِي، وَأَتَفَضَّلُ عَلَى الْمُسِيءِ؟!**

مَنْ ذَا الَّذِي دَعَانِي فَلَمْ أُلَبِّهِ؟! أَمْ مَنْ ذَا الَّذِي سَأَلَنِي فَلَمْ أَعْطِهِ، مَنْ ذَا الَّذِي أَنَاخَ بِبَابِي فَنَحَّيْتُهُ؟!»[1]

وكان ابن السماك يقول في مناجاته:

«تباركت يا عظيم .. لو كانت المعاصي التي عصيتها طاعة أطعت فيها ما زاد على النعماء التي تبتليها.

(١) شرح حديث لبيك اللهم لبيك لابن رجب (ص: ١٣٨).

وإنك لتزيد في الإحسان إلينا كأن الذي أتيناه من الإساءة إحسان.

فلا أنت بكثرة الإســـاءة منا تدع الإحسان، ولا نحن بكثرة الإحسان منك إلينا عن الإساءة نقلع.

أبيتَ إلا إحسانًا وأبينا إلا إساءةً واجتراء.

فمـــن ذا الذي يحصي نعمـــك ويقوم بإحســـانك وبأداء شـــكرك إلا بتوفيقك ونعمك؟!»[١]

غضبة الكون

أخي القارئ

والله ثـــم والله لو قُدِّر لأحدنا أن يرى ما يحـــدث في الأرض كما يراه الملأ الأعلى لاستشاط غضبًا، ولألح على الله بتعجيل عقوبته لأهل الأرض جميعًا.

تخيل أنك ترى أناسًا يعيشون في ملك الله.

ويأكلون من رزقه.

وينامون آمنين في حفظه.

والخدم تحيط بهم من كل جانب .. مسخَّرة لديهم ومؤتمَرَةً بأوامرهم.

ثم بعد ذلك كله لا يذكرون من أكرمهم بهذا كله، لا يشكرونه، ولا يعبدونه، بل يعصون أوامره، ويجحدون نعمه، ويبارزونـــه بالمعاصي، ويدَّعون عليه الادعاءات؛ فمن قائل: إن له ولدًا، ومن قائل: إن له شريكًا، ومن قائل: إن هناك إلهًا غيره.

---

(١) حسن الظن بالله لابن أبي الدنيا (ص: ٨٠).

تخيــل أن هذا يحدث كل يوم، بل في كل وقــت، وتخيل أنك ترى هذا كله، فماذا سيكون رد فعلك؟!

ســيكون بلا شك رد الفعل الطبيعي الذي تعيشه كل المخلوقات التي تشاهد ما يفعله الإنسان من جحود وعصيان، وتجرؤ على ربه.

سيكون مثل رد فعل السماوات والأرض والجبال حينما يردد بعض الضالين أن لله ولــدًا: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ ﴾ [مريم: ٨٨-٩١].

سيكون رد فعلك كالبحر الذي يستأذن كل يوم أن يغرق ابن آدم لكثرة معاصيه، وجرأته على ربه.

ولكن الحليم لا يسمح بذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر: ٤١].

الخليل يرى الملكوت

لقــد حدث أخي القارئ لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ما كنا نتخيله منذ قليل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعــام: ٧٥]، فلقــد رُفع إلى ملكوت الســماوات، ونظر إلى أهل الأرض، ورأى منهم ما رأى من معاصٍ وفجورٍ، فــماذا كان رد فعله وهو كما وصفه الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود: ٧٥].

فعن ســلمان الفارسي قال: «لما رأى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض رأى

رجلًا على فاحشـــة فدعا عليه فهلك، ثم رأى آخر على فاحشة فدعا عليه فهلك، ثم رأى آخر على فاحشة فدعا عليه، فأوحى الله إليه:

«أَنْ يَـــا إِبْراهِيمُ مَهْلًا، فَإِنَّكَ رَجُلٌ مُسْـــتَجابٌ لَكَ، وَإِنِّي مِـــنْ عَبْدِي عَلَى ثَلاثِ خِصَالٍ: إِمَّا أَنْ يَتُوبَ قَبْلَ الـــمَوْتِ فَأَتُـــوبَ عَلَيْهِ، وَإِمَّا أَنْ أُخْـــرِجَ مِنْ صُلْبِهِ ذُرِّيَّةً يَذْكُرُونِي، وَإِمَّا أَنْ يَتَوَلَّى فَجَهَنَّمُ مِنْ وَرَائِهِ»[1].

الستير

ومع حلمه العظيم وصبره ســـبحانه على عباده، فإنه كذلك ستير، يسترهم ولا يفضحهم رغم إساءاتهم البالغة.

تخيل -أخي القارئ- أن صديقك الذي يحبك وتحبه، قد علم أنك قد حســـدته يومًا ما على خيرٍ أتاه.. ماذا ستكون مشاعره تجاهك؟!

ولو علم من اغتبته بما ذكرته عنه.. بأي وجه سيلقاك وتلقاه بعد ذلك؟!

ولو علم الناس حقيقة أمري وأمرك ومدى تقصيرنا في جنب الله، وجرأتنا على معاصيه أتراهم يُقبلون علينا ويبتســـمون في وجوهنا؟ وهل ســـيلقون علينا السلام أصلًا؟!

إن من أَجَلِّ رحمات الله بعباده ستره لهم، وعدم انكشاف هذا الستر أمام بعضهم البعض، وإلا لما اســـتطاعوا أن يتعايشوا فيما بينهم، أو يتوادُّوا، أو يتراحموا، ولما أقدم بعضهم على مساعدة البعض؛ ومن ثَم لأصبح الجميع فريسة سهلة للشيطان.

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور وابن أبى شيبة في كتاب الفضائل (برقم: ٣٢٤٨٠) وفي كتاب ذكر رحمة الله (برقم: ٣٥٣٤٣)، وابن المنذر وأبو الشيخ كما في الدر المنثور للسيوطي (٣/ ٤٥).

بل إنه سبحانه يستحثنا على ستر بعضنا البعض، ووعد بعظيم الجزاء لمن ستر أخاه.

يقول رسول الله ﷺ: «**لَا يَسْتُرُ عَبْدٌ عَبْدًا فِي الدُّنْيَا، إِلَّا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١).

هذه في الدنيا، أما في الآخرة فيستمر الستر لعباده المؤمنين.

قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وسِتْرَهُ مِنَ النَّاسِ وَيُقَرِّرُهُ بِذُنوبِهِ فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ ثُمَّ يُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ بِيَمِينِهِ**»(٢).

وإليك هذه القصة

ونختم الحديث عن هذا المظهر العظيم من مظاهر حب الله لعباده بهذه القصة التي وقعت أحداثها في زمن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إذ أصاب قومه القحط، فاجتمع الناس إليه، فقالوا: يا كليم الله، ادع لنا ربك أن يسقينا الغيث، فقام معهم، وخرجوا إلى الصحراء وهم سبعون ألفًا أو يزيدون. فقال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إلهي، اسقنا غيثك، وانشر علينا رحمتك، وارحمنا بالأطفال الرُّضَّع، والبهائم الرُّتع، والمشايخ الركع، فما زادت السماء إلا تقشُّعًا، والشمس إلا حرارة وأوحى الله إليه إنَّ فيكم عبدًا يبارزني منذ أربعين سنة بالمعاصي، فنادِ في الناس حتى يخرج من بين أظهركم، فبه منعتكم.

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة، باب بشارة من ستر الله عيبه في الدنيا بأن يستر عليه في الآخرة (برقم: ٢٥٩٠).

(٢) مسند الإمام أحمد (٩/ ٣١٨ برقم: ٥٤٣٦)، ابن المبارك في الزهد (برقم: ١٦٦)، البخاري: (برقم: ٦٠٧٠، ٧٥١٤)، مسلم كتاب التوبة، باب توبة القاتل وإن كثر قتله (برقم: ٢٧٦٨).

فقام مناديًا وقال: أيها العبد العاصي الذي يبارز الله منذ أربعين سنة، اخرج من بين أظهرنا، فبك مُنعنا المطر.

فقام العبد العاصي، فنظر ذات اليمين وذات الشمال، فلم ير أحدًا خرج، فعلم أنه المطلوب، فقال في نفسه: إن أنا خرجت من بين هذا الخلق افتُضحت على رؤوس بني إسرائيل، وإن قعدت معهم منُعوا لأجلي، فأدخل رأسه في ثيابه نادمًا على فعاله، وقال: إلهي وسيدي، عصيتك أربعين سنة وأمهلتني وقد أتيتك طائعًا فاقبلني، فلم يستتم الكلام حتى ارتفعت سحابة بيضاء فأمطرت كأفواه القِرَب، فقال موسى: إلهي وسيدي، بماذا سُقينا وما خرج من بين أظهرنا أحد؟ فقال: يا موسى، سقيتكم بالذي به منعتكم.

فقال موسى: إلهي أرني هذا العبد الطائع. فقال: يا موسى إنِّي لم أفضحه وهو يعصيني، أأفضحه وهو يطيعني[1]؟!

(١) كتاب التوابين لابن قدامة المقدسي (ص: ٦٩، ٧٠).

تاسعًا: من مظاهر حب الله لك

خطابـــه الودود

الله عَزَّوَجَلَّ يملـك كل شيء في هذه الأرض التي نسـكنها، والسـماء التي تراها أعيننا: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٢٠].

وكل المخلوقات التي نراها من جبال وأنهار وبحار وأشـجار ورمال وأحجار ودواب و...

كل هذا خاضع لله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

وخضـوع الكون كله لله عَزَّوَجَلَّ خضوع سرمدي يغلِّفه الحمد لإتاحته سـبحانه الفرصة للوجود من العدم، واستمرار بقائه وحفظه، ويغلِّفه كذلك الإجلال لعظمته، والرهبة مـن جبروته وسـلطانه: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣].

ومن مظاهر الإجلال والرهبة والخضوع لله عَزَّوَجَلَّ عبودية الملائكة له سـبحانه، فهنـاك بعضهم في حالة من الركوع منذ أن خلقـه الله عَزَّوَجَلَّ، ومنهم من هو في حالة السـجود له سـبحانه منذ أن خلقهم: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

يقـول رسـول الله ﷺ: «إِنَّ للهِ مَلَائِكَـةً فِي السَّـمَاءِ قِيَامًـا إِلَى يَـومِ القِيَامَـةِ

تَرعَدُ فرائِصُهُمْ مِنْ مَخَافَتِـهِ، مَا مِنْهُمْ مَلَكٌ تَقْطُـرُ دَمْعَةٌ مِنْ عَيْنِهِ إِلَّا وَقَعَتْ عَلَى مَلَكٍ يُسَبِّحُ اللهَ، قَالَ: وَمَلَائِكَةٌ سُجُودٌ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ السَّمِوَاتِ والْأَرْضَ لَمْ يَرفَعُوا رُؤُوسَهُم، وَلَا يَرفَعُونَـهَا إِلَى يومِ القِيَامَةِ، وَصُفُوفٌ لَمْ يَنصرِفُوا عَنْ مَصَافِّهِمْ وَلَا يَنْصَرِفُونَ إِلَى يَومِ القِيَامَةِ، فَإِذَا كَانَ يَومُ القِيَامَةِ وَتَجَلَّى لَـهُمْ ربُّهُمْ، فَينْظُرُوا إِلَيْهِ، قَالُوا: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ كَمَا يَنْبَغِي لَكَ»[1].

من أنت؟

هذا الإله العظيم بعظمته وجبروته، بجلاله وكماله، بعزه وسلطانه كيف يخاطبك أنت؟! ومن أنت؟! أنت ذرة يسيرة في ملكه لا تساوي شيئًا بجوار جبل من الجبال أو بحر من البحار، بل إن الأرض كلها بمن عليها بالنسبة لمملكته لا تساوي مقدار حبة رمل من صحراء شاسعة لا حدود لها.

وبالإضافة إلى ذلك فلا تنسَ أن ربك هو الذي أوجدك من العدم، فقبل شهور من ولادتك لم تكن شيئًا مذكورًا.

وتذكـر أن حياتك كلها متوقفة عـلى إمداداته، ولو توقفـت تلك الإمدادات لانتهت حياتك.

ما المتوقع أن يكـون خطاب العزيز للذليل، والغني للفقير، والقوي للضعيف، والعظيم للحقير، والكبير للصغير، والمعطي للآخذ، والقادر للعاجز.

أليـس من المتوقع أن يكون الخطاب الموجَّه إلينا يتناسـب مع صفاته سـبحانه وصفاتنا؟

---

(١) رواه البيهقي في السنن، والخطيب في تاريخ بغداد (١٢/ ٣٠٧)، ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٠/ ٥٨، ٦١)، انظر كنز العمال (برقم: ٢٩٨٣٦).

أليس من المتوقع من إلــهٍ عظيم له هذا الملك والجلال والكمال أن يكون خطابه عبارة عن تعريف بمهمتنا مع بيان بالأوامر المطلوبة منا وكفى؟!

ولكنه ليس كذلك.

إنه خطاب عجيب يقطر ودًّا وحبًّا.

خطاب عنوانه: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٣].

خطاب يطمئن مستمعه

لو تفكرنــا فقط في خطاب الله لعبــاده -مؤمنهم وكافرهــم- لتأكدنا من حبه سبحانه لهم، وحرصه عليهم.

إنه خطاب يطمئن من يسمعه، ويدفعه ويستدرجه للفرار في اتجاه قائله.. الفرار إلى الله، لا الفرار منه.

ولنبدأ بصيغة النداء

تأمل نداءه ســبحانه للعصاة والمجرمين الذي يحادونه، ويجاهرون بارتكاب كل ما يغضبه، ويصرون على ذلك، بل ويســتهزئون بالمؤمنين.. بماذا يناديهم: ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

إنــه يناديهم بـ: يا عبادي، بكل ما يحمله هذا النداء من ود، وتلطف، وحنان. ثم انظر إلى ندائه للبشر جميعًا: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [فاطر: ٥].

وتأمــل نداءه للنصــارى الذين ادعوا عليــه زورًا وبهتانًا أن لــه ولدًا وزوجة

-حاشاه- يناديهم بقوله: يا أهل الكتاب، فيشعرهم بأن هناك صلة قوية بينهم وبينه، وأنهم ليسوا ببعيدين عنه.

ثم تأمل وتأمل نداءه لليهود الذين ارتكبوا من الآثام، ومظاهر العلو والاستكبار ما ارتكبوا .. قتلوا الأنبياء، وعبدوا العجل، وحاربوا المسيح عليه السلام وكذبوا بمحمد ﷺ و... ومع ذلك يناديهم فيقول لهم «يا بني إسرائيل» ..يا أبناء النبي إسرائيل .. نداء لطيف رقيق من المفترض أن يستثير مشاعرهم، ويستدرجهم لإصغاء سمعهم لما يتضمنه الخطاب الإلهي.

خطاب يقول لك: أقبل ولا تخف

نعم -أخي القارئ- إن خطاب الله عَزَّوَجَلَّ للبشر جميعًا خطاب مطمئن، يؤكد لهم فيه أن بابه مفتوح للجميع: «**يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنكَ وَلاَ أُبَالِي**»(١).

«**يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرُ لَكُمْ**»(٢). إنه خطاب عجيب يناشدنا فيه الله عَزَّوَجَلَّ أن نستغفره ليغفر لنا... أن نستفيد بالفرصة المتاحة أمامنا قبل أن يحل بنا الأجل.

ففي كل ليلة وبالأخص ثلثها الأخير يوجِّه الله عَزَّوَجَلَّ نداءه لعباده ويقول لهم: «**مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبُ لَه؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَه؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرُ لَه؟!**»(٣).

---

(١) الترمذي في الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار (برقم: ٣٥٤٠)، والترهيب والترغيب (٢/ ٣٠٩ برقم: ٢٥٠٠).

(٢) رواه مسلم (٤/ ١٩٩٤ برقم: ٢٥٧٧) - مطولًا.

(٣) البخاري كتاب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل (برقم: ١١٤٥)، وكتاب الدعوات، باب الدعاء نصف الليل (برقم: ٦٣٢١)، وكتاب التوحيد، باب (٣٥) برقم (٧٤٩٤).

فماذا تقول بعد ذلك؟!

ماذا تقول لمن يناديك وينادي عباده جميعًا فيقول: «**يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ، إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ، إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ**»(١).

ماذا تقول لمن يطلب منك دومًا أن تحسن به الظن فهو لن يضيعك، ولن يتركك، فمراده دخولك الجنة. قال رسول الله ﷺ: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ تَعَالَىٰ**»(٢).

خطاب يستثير الهمم

ومن سمات خطابه سبحانه لعباده أنه يستثير همتهم لفعل الخير، وذلك من خلال قوة طرقه على مشاعر الرغبة، واستجاشته للعاطفة، والتركيز على الجزاء العظيم المترتب على ما يريده منهم من الأعمال.

فعلى سبيل المثال: الإنفاق في سبيل الله عمل عظيم يطهر نفس صاحبه من الشح، ويسمو بها إلى السماء، ويخلصها من جواذب الأرض؛ ومن ثم يصبح من اليسير عليها العمل للآخرة والزهد في الدنيا بمفهومه الصحيح.

هذا العلاج الناجع للنفس البشرية يريد الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعلنا نتناوله بكثرة حتى

(١) مسلم في البر والصلة، باب تحريم الظلم (برقم: ٢٥٧٧)، الترمذي في صفة القيامة، باب رقم (٤٩) (برقم: ٢٤٩٥).

(٢) مسلم في صفة الجنة، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (برقم: ٢٨٧٧)، أبو داود في الجنائز، باب ما يستحب من الظن بالله تعالى عند الموت (برقم: ٣١١٣)، ابن ماجه في الزهد، باب التوكل واليقين (برقم: ٤١١٧).

ننتفع به؛ لذلك فهو يحببه لنا، ويرغبنا في القيام به بأساليب شتى، من أهمها رصد الجوائز الكبيرة والمغرية لمن ينفق من ماله في سبيل مرضاته كما قال عز من قائل: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴾ [الحديد: ١١].

ويتكرر هذا النوع من الخطاب الذي يستثير الهمم كثيرًا في القرآن: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ من هم؟!

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٦].

النصائح الغالية

أَتَذْكُر كم من المرات سمعت فيها نصائح غالية من أبويك وهما يوجِّهانك من خلالها نحو المعالي، ويحذِّرانك من العقبات التي قد تعترض طريقك؟

هذه النصائح ما انطلقت من ألسنتهما إلا بدافع الحب والشفقة والحرص على أن تكون في أحسن حال.

وكذلك يفعل الله مع عباده مع الفارق الكبير بين نصائحه ونصائحهم، وبين حبه وحبهم، وبين علمه وإحاطته بما يصلحك وبين علمهم.

فإن كنت تريد دليلًا على ذلك فتأمل معي هذا الخطاب الناصح منه سبحانه للناس جميعًا والذي يقول فيه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر: ٥، ٦].

وكذلك قوله لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ﴾ [النساء: ١٧٠].

وانظر إلى الخطاب الموجه لأهل الكتاب وما يحمل في طياته من نصائح غالية لهم على الرغم مما فعلوه من كفر وعصيان: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ﴾ [النساء: ١٧١].

وتأمل كذلك خطابه الناصح لليهود: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝٤٠ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ۝٤١﴾ [البقرة: ٤٠، ٤١].

أما المؤمنون فوصاياه لهم كثيرة منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠﴾ [المنافقون: ٩، ١٠].

وأحيانًا نجد الخطاب جامعًا بين لهجة النصح ولهجة الإشفاق والحنو، التي يُشعر الله فيها عباده المؤمنين بمدى حبه لهم، وخوفه عليهم من الحساب في الآخرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن

وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [لقمان: ٣٣].

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾ [الشورى: ٤٧].

التوجيه غير المباشر

ولعلمه سبحانه بطبيعة نفوسنا، وصعوبة قبولها النقد والتوجيه المباشر، كانت توجيهاته سبحانه غاية في التلطف والتوجيه غير المباشر، وإن أردت أن تتأكد من ذلك بنفسك -أخي القارئ- فما عليك إلا أن تقوم بإحصاء أوامره المباشرة في القرآن فستفاجأ أنها لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، وفي المقابل تجد أن الله عَزَّوَجَلَّ كثيرًا ما يعرض لك أمرين ويبين سمات كل واحد منهما ثم يترك لك حرية الاختيار مثل قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف: ٤٦] وقوله: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [الجمعة: ١١].

مراعاة النفسية البشرية

ومن أبرز صور مراعاة الخطاب الإلهي لطبيعة النفس البشرية عدم الإكثار من قوله «أنا» عند سرده لنعمه على عباده، وفضله الذي لا حدود له.

فالنفس لا تحب سماع هذه الكلمة بكثرة من الطرف الذي يخاطبها وبخاصة

حين يغدق عليها ويكرمها، ومع أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي خلقنا من العدم، وأعطانا من النعـــم ما لا يُعد ولا يُحصى، وأن من حقـــه أن يحدثنا بضمير المتكلم «أنا» وهو يعرفنا بنفسه وبنعمه وبقيوميته وقدرته و...

إلا أنه سبحانه لا يفعل ذلك، بل يتحدث عن نفسه -في غالب القرآن- بضمير الغائب «هو»: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [يونس: ٢٢].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾ [غافر: ١٣].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ [يونس: ٥].

فأيُّ ربٍّ رءوفٍ ودودٍ حيِّيٍّ كريمٍ هو ربنا.

ما بال أقوام؟!

ومن صور مراعاته سبحانه لطبيعة النفس البشرية توجيهه غير المباشر لعباده في خطابه لهم، فحين يريد تحذير المؤمنين من القيام بفعل ما، فإنه لا يتوجه مباشرة بذلك -في غالـــب الأحيان- بل يحدثهـــم عن أناس آخرين -بصيغة النكرة- ويشـــهدهم عليهم، ويجعلهم يســـتنكرون أفعالهم، مع أنهم قد يكونون هم المعنيين بهذا التحذير، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، الخطاب هنا موجه لنا بأن علينا أن نجتهد في إحصاء نعم الله كصورة من صور الشـــكر، ومن المفـــترض أن يكون التحذير الذي تتضمنه الآية بعد ذلـــك من مغبة عدم ذكر النعم حتـــى لا نقع في دائرة الظلم والكفر موجه لنا كذلـــك، فهل جاء الخطاب يحمل هذا المعنى المباشر؟

لا، لم يحدث ذلك، بل جاء وكأنه يخاطب شخصًا آخر: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

الخطاب موجه للإنسان، وكأنه شخص آخر بعيد لا نعرفه، مع أن الخطاب في بدايته موجه لنا، ومما لا شك فيه أن هذا التلطف العجيب في التوجيه والنصح له دور كبير في استقبال النصيحة بنفس هادئة.

لماذا العقاب؟

ومن مظاهر خطابه المطَمْئن لعباده أنه يذكر لهم دومًا السبب الذي من أجله عاقب فردًا أو قومًا في الماضي، مع أنه الإله العظيم ملك الملوك الذي لا ينبغي أن يُسأل عما يفعل، لكنه في الوقت نفسه الرب الودود الذي يحب عباده ويريد منهم أن يفروا إليه، لا أن يفروا منه؛ لذلك تراه سبحانه يُفصِّل في الأسباب التي أدت إلى عقوبة العصاة، وأنه قد صبر عليهم وأمهلهم وأعطاهم الفرصة تلو الفرصة، ولكنهم هم الذين أبوا العودة إليه، وأصروا على طغيانهم، واستكبروا عليه سبحانه، وحاربوا عباده، فاستدعوا بأفعالهم الكثيرة الظالمة غضب الحليم عليهم: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

ومع العقاب المستحق للظالمين، والذي يقع بعد طول إمهال، نجد التعقيب القرآني: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠].

يقول السعدي: قال الله متوجهًا للعباد: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ﴾ أي: ما أعظم شقاءهم، وأطول عناءهم، وأشد جهلهم، حيث كانوا بهذه الصفة القبيحة، التي هي

سبب لكل شقاء وعذاب ونكال»[١].

تأمل معي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

فماذا فعل أهل سبأ؟ هل شكروا هذه النعم العظيمة؟ لم يفعلوا ذلك، بل أكلوا من رزق ربهم ولم يشكروا له؟ وتبطروا على نعمه، فاستدعوا العقاب من الله عَزَّوَجَلَّ لهم: ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ ثم تأتي حيثيات هذه العقوبة: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾ ويتلوها الخطاب المطمئن: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٥- ١٧].

وتأمل قوله تعالى وهو يحدثنا عن اليهود ولماذا عاقبهم بما عاقبهم، وكيف أنه صبر عليهم طويلًا، ولكنهم هم الذين أصروا على طغيانهم:

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ تأمل قوله: ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَۚ﴾.

وتمضي الآيات تعدد مظاهر حلم الله عليهم وتعدد كذلك مظاهر طغيانهم: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء: ١٥٤- ١٥٦].

(١) تفسير السعدي (ص: ٦٩٥).

وكأنه يطلب منك الشهادة على الناس

وفي بعض الأحيان نستشعر بأن الخطاب المتوجه إلينا يطلب منا الشهادة على فعل من الأفعال الشائنة، كل ذلك لتزداد اطمئنانًا بأن الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤] ومن ذلك قوله تعالى:

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

وقوله: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢].

مواساته للمبتلين

ومن عجيب خطابه سبحانه وتعالى لعباده مواساته لهم عندما يحدث لهم مكروه بسبب ذنوبهم أو تقصيرهم.

فعلى سبيل المثال: عندما خالف الرماة أمر رسول الله ﷺ وحدثت الهزيمة نجد الخطاب القرآني يخفف عن الصحابة آثار ما حدث لهم، ويبين الأسباب، وأن ربهم نصرهم في البداية نصرًا مؤزرًا ولكنهم هم الذين اختلفوا وخالفوا أمر رسولهم فكان ما كان:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ

﴿عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

.. فمع بيانه سبحانه لأسباب هزيمة المؤمنين وأنهم هم الذين تسببوا في ذلك إلا أنه يواسيهم، ويضمد جراحهم بكلام يقطر حنانًا وشفقة:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩، ١٤٠].

ويطمئنهم على إخوانهم الشهداء بأنهم في أحسن حال:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩- ١٧١].

وفي النهاية

وفي نهاية الحديث عن هذا المظهر العظيم من مظاهر حب الله لنا ولعباده أجمعين أتركك -أخي القارئ- مع هذا الحديث القدسي لكي تقرأه وتعيش معه بعقلك ومشاعرك:

«إِنِّي وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ فِي نَبَأٍ عَظِيمٍ: أَخْلُقُ وَيُعْبَدُ غَيْرِي، وَأَرْزُقُ وَيُشْكَرُ سِوَايَ، خَيْرِي إِلَى الْعِبَادِ نَازِلٌ، وَشَرُّهُمْ إِلَيَّ صَاعِدٌ، أَتَحَبَّبُ إِلَيْهِمْ بِنِعَمِي، وَأَنَا الْغَنِيُّ عَنْهُمْ، وَيَتَبَغَّضُونَ إِلَيَّ بِالْمَعَاصِي، وَهُمْ أَفْقَرُ شَيْءٍ إِلَيَّ، مَنْ أَقْبَلَ إِلَيَّ تَلَقَّيْتُهُ مِنْ بَعِيدٍ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِّي نَادَيْتُهُ مِنْ قَرِيبٍ، وَمَنْ تَرَكَ لِأَجْلِي أَعْطَيْتُهُ فَوْقَ الْمَزِيدِ، وَمَنْ أَرَادَ رِضَايَ

أَرَدْتُ مَا يُرِيدُ، وَمَنْ تَصَرَّفَ بِحَوْلِي وَقُوَّتِي أَلَنْتُ لَهُ الْـحَدِيدَ.

أَهْلُ ذِكْرِي أَهْلُ مُجَالَسَتِي، وَأَهْلُ شُكْرِي أَهْلُ زِيَادَتِي، وَأَهْلُ طَاعَتِي أَهْلُ كَرَامَتِي، وَأَهْـلُ مَعْصِيَتِي لَا أُقَنِّطُهُمْ مِنْ رَحْمَتِي، إِنْ تَابُوا إِلَيَّ فَأَنَـا حَبِيبُهُمْ، فَإِنِّي أُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَأُحِبُّ الْـمُتَطَهِّرِينَ، وَإِنْ لَمْ يَتُوبُوا إِلَيَّ فَأَنَا طَبِيبُهُمْ، أَبْتَلِيهِمْ بِالْـمَصَائِبِ، لِأُطَهِّرَهُمْ مِنَ الْـمَعَايِبِ...»[1].

• • •

(١) نوادر الأصول للحكيم الترمذي (برقم: ٩٨٣) في الأصول (برقم: ١٨٩) طبعة دار النوادر، الطبراني في مسند الشاميين (٢/ ٩٣ برقم: ٩٧٤)، تاريخ ابن عساكر (١٧/ ٧٧)، شعب الإيمان للبيهقي (٤/ ١٦٦٠ برقم: ٤٥٦٣) الجميع عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله ﷺ: قال الله تبارك وتعالى: «**إني والجن والإنس في نبأ عظيم أخلق ويعبد غيري وأرزق ويشكر غيري**»، وأورده ابن القيم بالزيادات الموجودة هنا في مدارج السالكين في آخر منزلة التوبة.

عاشرًا: من مظاهر حب الله لك
ترغيبـك وترهيبك

ليــس بخافٍ على أحد أن النفس البشرية إذا ما رُغِّبت في فعل شيء ما، وعلمت بما ينتظرها من جزاء حسن نظير قيامها بهذا الفعل فإنها تتشجع، وتقدم عليه بقدر ما تستثار فيها مشاعر الرغبة.

وفي المقابــل فإنهــا إذا ما خُوِّفت، ورُهِّبــت من القيام بفعل مــا، وأن مكروهًا ســيصيبها إذا ما فعلته، فإنها تُحجم عن القيام به بقدر ما ينســكب داخلها من خوف ورهبة.

هــذه خاصية أصيلة من خصائص النفس البشرية، هذه الخاصية لها دور كبير في إقدام المرء على أداء العمل أو إحجامه عنه، ففي الحديث «**مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْـمَنْزِلَ، أَلَاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ، أَلَاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الجَنَّةُ**»(١).

ويعلق المناوي في فيض القدير على هذا الحديث فيقول:

فــكل من خاف الردى أو فَوْت ما يتمنى لا يركن إلى الراحة ولا ينتظر الصباح، بل يبادر إلى الحركة والسفر ولو كان بالليل(٢).

التربية الربانية

ولأنه ســبحانه هو الذي خلق فينا هذه الخاصية، فإنه يوجه لنا خطابه بالترغيب

(١) سنن الترمذي في صفة القيامة، باب من خاف أدلج (برقم: ٢٤٥٠).
(٢) فيض القدير (٦/ ١٥٩).

والترهيب في تربيتنا وتوجيهنا نحو المبادرة لفعل الخير واجتناب فعل الشر.

ولتقريب هذا المعنى للأذهان نضرب لذلك مثالًا سيساعدنا إن شاء الله على فهم الكثير من أفعال الله عَزَّوَجَلَّ معنا ومع العباد، وسيؤكد لنا أن مردّها كله إلى حبه تعالى لنا وشفقته علينا وإرادته الخير لنا، وحبذا لو استصحبناه معنا طوال رحلتنا المباركة لزيادة قدر محبته سبحانه في قلوبنا حتى تصير أحب الأشياء إلينا.

.. هذا المثال أوردناه من قبل، ولأهميته نكرر ذكره هنا في هذا المقام.

الجد المدير

هب أن هناك مدرسة يُديرها رجل مُعمِّر، هذا الرجل بالإضافة لكونه مدير المدرسة هو جد لجميع الطلاب الذين يدرسون فيها.

تحوي هذه المدرسة كما الحال في معظم المدارس بعض التلاميذ دائمي الشغب، لا يؤدون الواجبات، ويتأخرون عن الدوام، ولا يحترمون معلميهم ويتجاوزون معهم حدود الأدب .. و.. وغيرها من التصرفات التي تستوجب العقاب حسب لوائح المدرسة وقوانينها.

رغم تحذير المدير المستمر لهم إلا أنهم كانوا يتعاملون مع تحذيراته باستخفاف وسخرية، أنذرهم تارة ورغبهم وحفزهم تارة، لكن كثيرًا منهم أصر على المخالفة، فاستحقوا بذلك العقوبة.

هنا حين تحق العقوبة على هؤلاء التلاميذ، فيهرع أبناء هذا الرجل المعمر إليه ليطلبوا منه إمهالهم والتجاوز عنهم، فهم يخاطبون رحمة الجد وشفقته على أحفاده.

إذًا.. ولأن هذا الرجل المعمر له صفتان:

الأولى: صفة الجد

الثانية: صفة المدير

فإيقاعه العقاب المستحق على الطلبة طبقًا للائحة كان يقوم به كمديرهم

وإمهاله لهم وصبره وحلمه عليهم كان يقوم به كجدهم،

ومما لا شـــك فيه أن قيام الجد المدير بعقاب أحفاده وتخويفهم يدفعه لذلك حبه لهم وخوفه عليهم وحرصه على أن يكونوا من المتفوقين.. ولولا أنه رأى منهم تهاونًا واستخفافًا بالمطلوب ما وجدوا منه هذه المعاملة، وأيضًا فإنه ينتظر منهم أن يستفيدوا من العقاب بأن ينتبهوا لدراستهم ويأخذوا الدراسة مأخذ الجد.

ولله المثل الأعلى، فالله عَزَّوَجَلَّ يحبنا، ويريد لنا جميعًا أن ندخل الجنة..وحبه لعباده يفوق ويفوق مثال الجد مع أحفاده ملايين المرات..

تأمل معي قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

فالآية تدل دلالة واضحة على أن الله سبحانه وتعالى يخوفنا لنخاف ونترك طريق الضلال ونتجه نحو صراطه المستقيم فندخل الجنة.

انظر مثلًا إلى قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦].

أرأيت صيغة الخطاب: ذلك يخوف الله به عباده .. يا عباد فاتقون.

فمـــع أن الآية تتحدث عن النـــار وما فيها من عـــذاب، إلا أنها تحمل في طياتها دلالات عظيمة عن حب الله لعباده، وكيف لا ونحن نلمح فيها مناشدة من الله عَزَّوَجَلَّ لعباده بأن يخافوا، ويحذروا عقابه؛ لأنه لا يريد لهم أن يدخلوا هذه النار.

هل قامت القيامة؟!

ثم إن ثمة أسئلة قد تقفز إلى أذهان البعض وهي:

هل قامت القيامة أم لم تقم؟

هل بالفعل دخل بعض الناس الجنة والبعض الآخر النار؟!

الإجابة معروفة للجميع، بأنه إلى الآن لم تقم القيامة ولم يتوزع الناس بين الجنة والنار.

إذن فلماذا يقص القرآن هذه الصور التفصيلية عن القيامة، والجنة والنار، وكأن الأمر قد انقضى، والأمور قد حُسمت مثل ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١ ﴾ [الأعراف: ٥٠، ٥١].

هذا الحوار بين أهل النار وأهل الجنة لم يتم حتى الآن، فلماذا يعرضه الله لنا ويسرده بهذا التفصيل؟!

لماذا يحتل الحديث عن القيامة والجنة والنار هذه المساحة الواسعة من القرآن؟!

ألا توافقني -أخي القارئ- أن هذا التفصيل في عرض الجنة وكأننا نراها رأي العين، وكأن أهلها قد سكنوها وبدؤوا في التمتع بما فيها من نعيم، ألا توافقني أن الغرض من ذلك هو استثارة رغبتنا لدخولها؛ ومن ثمَّ الوفاء بحقها والسباق نحوها؟!

وكذلك عرض النار بهذه الصورة البشعة الكريهة، المنفرة لنخاف منها ونجتهد

في الابتعاد عنها؟!

وتأكيدًا على هذا المعنى أتركك مع هذه الآيات لتقرأها وتتفكر في معانيها.

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الصافات: ٤٠- ٦٨].

معنى ذلك أن التوسع في الحديث عن أحداث اليوم الآخر وما فيها من ترغيب وترهيب ما هو إلا مظهر عظيم من مظاهر حب الله لعباده.

وإليك هذا الدليل

يقول تعالى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ٣٠].

أرأيت ما تحمله الآية من تحذير وتخويف؟ ورأيت بماذا انتهت؟!

فالآية تـــدل دلالة قاطعة على أن الله عَزَّوَجَلَّ يخوِّفنا ويحذِّرنـــا رحمةً ورأفةً بنا لكي نرتدع ونبتعد عما نهانا عنه.

فإن قلت: وما الداعي لوجود النار من الأصل في ظل وجود هذه الرأفة والرحمة الإلهية؟!

هذا السؤال أجاب عنه القرآن في عدة مواضع منها قوله تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦].

وقولـــه: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١].

لا يمكن أن يســتوي -بأي حال من الأحوال- المجد المجتهد الذي ألزم نفسه الاســتقامة على أمر الله مع من أسرف على نفســه، ولم يبال بأوامر ربه واستهان بها، وعاث في الأرض فسادًا.

إن من دواعي العدل والرحمة الإلهية ألا يستوي هذا مع ذاك: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ [السجدة: ١٨].

اللص والسجن

هب أن لصًا قد اقتحم قرية من القرى، واختبأ في بعض نواحيها، وظل يُغير كل ليلة على منزل من منازلها فيهدد أهله، ويسرق ما فيه.

تُرى على أي حال سيكون أهل هذه القرية التي كانت قبل مجيء هذا اللص آمنة مطمئنة؟!

بلا شك ســيتبدل أمنهم فزعًا، وطمأنينتهم رعبًا وهلعًا، وكيف لا وكل واحد

منهم يتوقع كل ليلة هجوم اللص على داره... لا يعرف النوم إلى عينه طريقًا، بل ينخلع قلبه من الفزع إذا ما سمع صوتًا غريبًا حول داره.

هل من المناسب في ظل هذا الوضع المأساوي أن يُترك اللص هكذا دون العمل على القبض عليه والقصاص منه تحت مسمى الرحمة.

إن الرحمة تقتضي سرعة الإمساك به وحبسه لتعود السكينة للناس، ويعود إليهم أمنهم.

نعم -أخي القارئ- لا بد من عقاب المخطئ الذي أساء الأدب مع ربه وخالف أوامره، واستخدم ما سخره له من النعم الكثيرة في معصيته.

استخدم يده ورجله وعقله وعينيه ولسانه وشفتيه في محادَّة الله وعصيانه واستحلال محارمه، استخدم كل هذه الأشياء وغيرها -رغمًا عنها: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

ومع هذا كله فالله عَزَّوَجَلَّ الرءوف الرحيم يحذر العصاة والكافرين، يستحثهم على التوبة ويرغبهم في الجنة ويخوفهم من النار لعلهم يعودون إليه قبل فوات الأوان.

تأمل معي هذه الآيات التي تؤكد هذا المعنى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل: ٤٥-٤٧].

هل رأيت أخي القارئ بماذا اختتمت هذه الآيات التي تحمل تحذيرًا شديدًا للعصاة: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

نعم، إن ربنا لرءوف رحيم، وما عاقب إنسانًا إلا لأنه هو الذي استدعى واستحق العقوبة بأفعاله الكثيرة المخالفة لأوامر ربه والمستهينة به.

ولو كان الله عَزَّوَجَلَّ يريد بالفعل أن يعاقب كل مخطئ على خطئه، وأن يقيم ميزان العدل على الجميع ما خوفنا كل هذا التخويف، يكفي أن يقول لنا بأن هناك حسابًا للمخطئ على خطئه، وأن النار في انتظاره، ولكنه -سبحانه- لم يفعل ذلك، بل حذرنا وحذرنا بأساليب شتى، وقص علينا ما سيحدث في يوم القيامة حتى صرنا وكأننا نراه رأي العين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢﴾ [الحج: ١، ٢].

كل ذلك مبعثه الشفقة والرحمة بالناس جميعًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ١٤٣].

شمول الترغيب والترهيب

ولا يكفي أسلوب الترغيب والترهيب بذكر اليوم الآخر والجنة والنار، بل يتسع ويمتد ليشمل أمورًا كثيرة في حياة الفرد والجماعة، وليتناول الماضي والحاضر والمستقبل، كل ذلك ليحقق المقصود من استخدامه ألا وهو الاستقامة على أمر الله.

ويشمل كذلك العقوبات التي تنزل بالعبد في الدينا من منع وتعسير في أموره وضيق في الصدر، وفقدان شيء، كل هذا منطلقه هو حبه -سبحانه- ودفعه للعبد لكي يستقيم فيدخله الجنة.

وإليك -أخي القارئ- بعضًا من التفصيل في هذا الأمر

الناس جميعًا

لأن الله عَزَّوَجَلَّ يحب عباده ويريد لهم الخير فإنه سبحانه قد شملهم جميعًا بتوجيهاته ما بين الترغيب والترهيب، فتراه -على سبيل المثال- يرغب اليهود فيقول لهم: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ثم تراه يخوفهم فيقول لهم: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٢، ١٢٣].

وأهل الكتاب يخوفهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا﴾ [النساء: ٤٧].

ويرغبهم بقوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المائدة: ٦٥].

والمشركين يقول لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

بل وحتى المؤمنين: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾ [آل عمران: ٢٨].

الترهيب والترغيب في قصص السابقين

ومع شمول أسلوب الترهيب والترغيب لجميع الناس فإنه يمتد ليشمل الزمن

كله ماضيه وحاضره ومستقبله.

فالله عَزَّوَجَلَّ يدعونا في كتابه للاستفادة مما حدث مع السابقين في الأزمنة الماضية، فيرغبنا في الاحتذاء بالنماذج الصالحة، ويخوفنا من النماذج الطالحة.

فنجد أن الله سبحانه قد قدم إبراهيم عليه السلام في القرآن، وفي أكثر من موضع كنموذج صحيح لما ينبغي أن يكون عليه المؤمن؛ لذلك فقد عرضه القرآن بطريقة ترغب القارئ وتحفزه على الاقتداء به: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النحل: ١٢٠- ١٢٣].

أما قارون، فكان نموذجًا فاسدًا لعبد آبق اغتر بماله وتوهم أن له مكانة أعلى من سائر البشر، وكذلك فرعون الذي طغى وتكبر، وقوم عاد وثمود وغيرهم من نماذج الظالمين المتكبرين، هذه النماذج أفاض القرآن في ذكرها، والمآل الذي صار إليه أصحابها ترهيبًا وتخويفًا لنا كي نجتنب ما فعلوه: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ ﴾ [يوسف: ١١١].

الرسائل الإلهية

هذا في الماضي، أما في الحاضر فيظهر أسلوب الترغيب والترهيب من خلال الرسائل الإلهية التي يُرسلها الله لعباده متشابكة مع أحداث حياتهم، فالبرق رسالة ترغيب وطمع في رحمة الله لما يبشر به من نزول المطر، وهو كذلك ترهيب لمن يراه حين يضيء السماء، ويشق السحب: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [الروم: ٢٤].

والزلازل والبراكين والأعاصير، وكسوف الشمس، وخسوف القمر .. كل هذه رسائل تخويف، يخوف الله بها عباده، لعلهم يقدرونه حق قدره فيعبدوه حق عبادته فيدخلوا الجنة: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

المستقبل والترغيب والترهيب

وأما ما يخص المستقبل فنرى القرآن والسنة قد امتلآ بالآيات والأحاديث التي تحدثنا عن اليوم الآخر والجنة والنار -كما أسلفنا- بأسلوب مثير، يستجيش عواطف الرغبة والرهبة، تأمل معي -على سبيل المثال- هذه الآية وما تحمله من خطاب يستثير العاطفة: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

الترغيب والترهيب في أفعال العباد

ومع شمول أسلوب الترغيب لجميع الناس وامتداده عبر الزمان كله، فإنه كذلك يتناول الكثير من أفعال العباد، فيرغب في الإتيان بالأعمال الصالحة، ويُرهِّب من الإتيان بأعمال الفسق والفجور والعصيان.

فعلى سبيل المثال:

الترغيب في الإنفاق في سبيل الله

الله عَزَّوَجَلَّ أعطى للإنسان حرية الاختيار واتخاذ القرار ، فهو لا يجبره على فعل شيء لا يريده، ومع ذلك فهو سبحانه يريد للبشر جميعًا دخول جنته؛ لذلك نجده سبحانه في خطابه إلينا يرغبنا في كل ما يقربنا من جنته، ويبعدنا من ناره ... يستثير

رغبتنا لاتخاذ القرار بفعل الخيرات وترك المنكرات.

ولأنه سبحانه قد أسكننا الأرض ويعلم أن من أشد ما يحول بيننا وبين دخول الجنة: التعلق بزينة الحياة الدنيا، وأن أهم رمز للدنيا هو المال؛ لذلك فقد أخبرنا بأن من أهم العقبات التي تقف في طريق الجنة هي التعلق بالمال: ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [البلد: ١١- ١٣].

والتغلب على هذه العقبة إنما يكون بدوام الإنفاق.

فالإنفاق إذًا طريق سهل لدخول الجنة، ولكن النفس لا تحب الإنفاق: ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴾ [النساء: ١٢٨].

من هنا نجد تنوع أساليب الحث عليه، وإنشاء الرغبة فيه، كل ذلك ليتغلب المرء على شح نفسه وخوفها من الفقر؛ ومن ثم اجتيازها للعقبة، ومن هذه الأساليب: التذكير بأهميته وأنه من أبواب الجهاد في سبيل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الصف: ١٠، ١١].

ومنها: التذكير بأن الإنفاق يرضي الله عَزَّوَجَلَّ ويقرب صاحبه منه سبحانه: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الروم: ٣٨].

ومنها: التذكير بفضل العمل وثماره المتوقعة: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وأن من هذه الثمار ما يجدها صاحبها في الدنيا: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

والتذكير بأن المستفيد الأول من الإنفاق هو المنفق: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

والترهيب من تركه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

ويطمئننا بأن الذي يأخذها هو الله؛ ومن ثمَّ فلن تضيع على صاحبها: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤].

هذه المعاني العظيمة وغيرها كثيرًا ما نجدها تتكرر في القرآن بأساليب مختلفة.

وهكذا يصبح استخدام أسلوب الترغيب والترهيب من أعظم مظاهر حب الله لعباده.

• • •

كلمة أخيرة عن مظاهر حب الله لنا

عشنا معًا في ظلال شجرة المحبة، ورأينا بعضًا من مظاهر الحب الإلهي لنا جميعًا.. ليبقى سؤال أوجهه إلى نفسي وإليك -أخي القارئ- وهو:

أما آن لنا أن نبدأ مع الله عَزَّوَجَلَّ صفحة جديدة من الحب الصادق الذي يثمر طاعة له، وأنسًا به وشوقًا إلى لقائه؟!

ألا يستحق هذه الإله الودود الكريم أن نعامله معاملة تليق بجلاله وتتناسب مع ما يعاملنا به؟!

فلنبدأ إذن من الآن، وقبل أن تذهب تلك الحالة الشعورية التي صاحبتنا ونحن نتعرف على مظاهر حب الله لنا.

لنبدأ بدعائه سبحانه دعاء فيه إلحاح وتضرع ونسأله فيه أن يرزقنا حبه، وأن يهيمن هذا الحب على مشاعرنا حتى يصير حبه سبحانه الأحب إلينا من كل شيء، وندعو كذلك بدعاء النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ، اللَّهُمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ، وَمَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فاجْعَلْهُ فَرَاغًا لِي فِيمَا تُحِبُّ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي وَمَالِي، وَمِنْ الْمَاءِ الْبَارِدِ عَلَى الظَّمَأ، اللَّهُمَّ حَبِّبْنِي إِلَيْكَ وَإِلَى مَلَائِكَتِكَ وَأَنْبِيَائِكَ وَرُسُلِكَ وَعِبَادِكَ الصَّالِحِينَ، وَاجْعَلْنِي مِمَّن يُحِبُّكَ وَيَحِبُّ مَلَائِكَتَكَ وَأَنْبِيَائَكَ وَعِبَادَكَ الصَّالِحِينَ، اللَّهُمَّ أَحْيِي قَلْبِي بِحُبِّكَ وَاجْعَلْنِي لَكَ كَمَا تُحِب، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي أُحِبُّكَ بِقَلْبِي كُلِّهِ، وَأُرْضِيكَ بِجَسَدِي كُلِّهِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبِّي كُلَّهُ لَكَ، وَسَعْيِي كُلَّهُ فِي مَرْضَاتِكَ**»[1].

ولننتقل الآن إلى الوسائل العملية التي تمكن لحب الله في قلوبنا

(١) ورددت ألفاظ هذا الحديث في سنن الترمذي (برقم: ٣٤٩٠، ٣٤٩١) وكذلك في الفتوحات الربانية (٤/ ٤٠٠) لابن حجر.

الفصل الرابع

الوسائل العملية
لتمكين حب الله في القلب

أمران لا بد منهما

إن كانت المعرفة هي طريق المحبة الصادقة لله عَزَّوَجَلَّ -كما أسلفنا في المقدمة- فإن هـذه المعرفة، التي عشـنا في أجوائها، تحتـاج دومًا إلى تذكير يتجـاوب معه الفكر والعاطفة، هذا التذكير الدائم من شأنه أن يبذر بذور المحبة في القلب، ويشكل قاعدته في المشاعر والوجدان.

ومـع أهمية التذكير الدائم تـأتي الأعمال الصالحة ذات الصلـة بموضوع المحبة لتكون بمثابة الماء الذي يسقي بذور المعرفة بالله الودود، فتنمو شجرتها ويرتفع بنيانها، لتكون النتيجة هي اسـتحواذ حب الله على أكبر قدر من مشاعر الحب داخل القلب: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦].

وسائل التذكير بمعارف المحبة

ووسائل التذكير بمعارف المحبة، ومظاهرها تتركز في أمرين عظيمين: كتاب الله المقروء، وكتاب الله المنظور.

أولاً: القرآن ودوره في إنشاء الإيمان والتذكير بمعارف المحبة

القرآن هو أفضل وسـيلة للتعريف بالله عَزَّوَجَلَّ والتذكير الدائم بمظاهر حبه لنا، وأفضل وسيلة كذلك لتحويل هذه المعرفة إلى إيمان يستحوذ على مشاعر الحب داخل القلب ويوجهها للمولى سبحانه، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُحِبَّ اللهَ وَرَسُولَهُ**

فَلْيَقْرَأْ فِي الْمُصْحَفِ»[١].

نعم، هناك وسائل أخرى تقوم بالتذكير بهذه المظاهر، تقف على رأسها السُّنة والتي تعتبر شارحة للقرآن مؤكدة لما فيه، ومع ذلك يبقى القرآن الوسيلة العظيمة لدوام التذكير، وتقرير الحقائق، وإنشاء الإيمان، فهو دائم التعريف بالله عَزَّوَجَلَّ وبأسمائه وصفاته ومظاهر حبه لعباده.

ومع هذا التعريف نجد التكرار للمعنى الواحد بأساليب مختلفة ليرسخ مدلوله في العقل الباطن للإنسان فيشكل جزءًا من يقينه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ [الإسراء: ٤١].

وفي عرضه للمعاني نجد أن العرض يخاطب العقل فيقنعه والمشاعر فيستثيرها؛ مما يحوِّل الحقائق والقناعات الفكرية إلى إيمان راسخ في القلب.

ومما يساعد القارىء على انتفاعه بالقرآن هو التزامه بما أمره الله به من تدبر وتفهم لما يقرؤه من آيات، وكذلك ترتيله لها، فالفهم والتفكر يخاطبان العقل فيقتنع، والترتيل يهز المشاعر، فيمتزج بذلك الفكر مع العاطفة ليثمر يقينًا في العقل، وإيمانًا في القلب، وهذا لا يتوافر في أي كتاب آخر على وجه الأرض: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

يقول ابن رجب: «سماع القرآن ينبت الإيمان في القلب كما ينبت الماء البقل».

تعرف على ربك

القرآن -أخي القارئ- هو أفضل وسيلة لغرس محبة الله في القلب، ولقد تم

(١) شعب الإيمان (برقم: ١٥٣٣)، أبو نعيم في الحلية (٧/ ٢٠٩).

الحديث بشيء مـــن التفصيل حول هذا الموضوع في أكثر من موضع ســـابق[١]، ولا داعي لتكرار ما قيل، ولكن نُذَكر بأمر مهم وهو: أن إنشاء الإيمان في القلب من خلال القـــرآن لن يتم إلا إذا كان هدفنا حين نقرؤه أن نفهم ما نقرؤه -ولو بصورة إجمالية- وأن نجتهـــد في التأثر به من خلال الترتيل والتباكي مـــع القراءة. مع عدم إغفال أمر مهم أيضًا وهو كثرة قراءته، وإعطاؤه الأولوية الأولى في حياتنا.

قـــال حذيفة بن اليمان: «اقرؤوا القرآن بحُزن، ولا تجفوا عنه، وتعاهدوه ورتلوه ترتيلًا»[٢].

وبالإضافة إلى ذلك علينا ونحن نعيش في أجواء محبة الله عَزَّوَجَلَّ، وبعد أن تعرفنا على كثير من مظاهرها أن نتتبع هذه المظاهر ونحن نقرأ القرآن، فإن هذا من شأنه -إذا ما داومنا عليه- أن يؤكد ويرســـخ مدلولها في اليقين، ويزيد الإيمان في القلب ويحوله إلى مقام ثابت.

نعم، علينا ألا نقف عند كل آية لنستخرج منها ما يدل على حب الله لعباده حتى لا تتحول القراءة إلى عملية عقلية فكرية فقط، فالمطلوب -كما قيل ســـالفًا- هو مزج الفكر بالعاطفة، وتجاوب العقل مع القلب، وهذا يســـتدعي اســـتمرارية وانسيابية القراءة ليتسرب تأثيرها شـــيئًا فشيئًا إلى المشاعر حتى تصل فى النهاية لمرحلة الانفعال والتأثر.

معنى ذلك أنه من المناسب أن نبحث عن مظاهر المحبة في القرآن بصورة إجمالية

(١) مثل ما تضمنته كتب: العودة إلى القرآن -بناء الإيمان من خلال القرآن -كيف نغير ما بأنفسنا- حقيقة العبودية.

(٢) لمحات الأنوار للغافقي (برقم: ٥٦٦).

لا تؤثر بالسلب على تفكرنا العام في الآيات، ولا تجعلنا نقف عند كل كلمة، ولعل ما قيل في الصفحات السابقة من شأنه أن يستثير مشاعرنا، وينشئ داخلنا حالة شعورية لمحبة الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا ما استشمرنا وجود هذه الحالة، ودخلنا بها إلى القرآن فسنجد ما يؤكدها من آيات، وسنفاجأ وكأن محور القرآن الرئيس يدور حول هذا الموضوع.

أخي القارئ

إن القرآن هو أفضل وسيلة لتنمية حب الله في القلب والوصول لمرحلة الأنس به والشوق إليه سبحانه؛ لذلك أنصح نفسي وإياك أن نكثر من تلاوته بفهم وترتيل وتبالٍ، وأن نتعرف على الله الودود من خلال هذا الكتاب، وحبذا لو خصصنا ختمة أو أكثر لهذا البحث العظيم.

يقول ابن رجب: «ومما يستجلب المحبة: تلاوة القرآن بالتدبر والتفكر لاسيما الآيات المتضمنة للأسماء والصفات والأفعال الباهرات، ومحبة ذلك يستوجب به العبد محبة الله، ومحبة الله له»[١]، فتتحقق: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾.

ومما يؤكد هذا المعنى قول رسول الله ﷺ: «**أَلا مَنْ اشْتَاقَ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلْيَسْمَعْ كَلَامَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّ مَثَلَ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ جِرَابٍ مِسْكٍ أَيُّ وَقْتٍ فَتَحْتَهُ فَاحَ رِيحُهُ**»[٢].

وقوله ﷺ: «**مَا مِنْ كَلَامٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ مِنْ كَلَامِهِ، وَمَا رَدَّ الْعِبَادُ إِلَى اللهِ كَلَامًا أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ كَلَامِهِ**»[٣].

فالأمر واضح، والطريق معبّد لتنمية حب الله في القلب، وكيف لا والقرآن بين

(١) استنشاق نسيم الأنس لابن رجب (ص: ٥٥).
(٢) رواه الديلمي عن أبي هريرة، كذا في كنز العمال (برقم: ٢٤٧٢).
(٣) الدارمي، باب القرآن كلام الله (٢/ ٤٤٠)

أيدينا ولا يوجد أي شيء يحول بيننا وبينه، فكلما اهتاجت لدينا مشاعر الشوق إلى الله، وأردنا أن نسكنها، وكلما أردنا أن نأنس بالله، ونزداد حبًّا له، وتعلقًا به فلنهرع إلى المصحف، نناجيه ونتحدث إليه -سبحانه- من خلال قراءتنا وتجاوبنا مع خطابه لنا، قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ أَنْ يُحَدِّثَ رَبَّهُ فَلْيَقْرَأِ القُرْآنَ**»(١).

فإن قلت: ولكن مشاعر الشوق إلى الله لا تهتاج عليَّ كثيرًا !

الحل أيضًا في مداومة قراءة القرآن آناء الليل وأطراف النهار، لتزداد مساحة حب الله في قلوبنا شيئًا فشيئًا، فيثمر ذلك شوقًا مستمرًّا إليه يجعل صاحبه في عجلة دائمة للاتصال بالله من خلال قراءة القرآن في الصلاة وخارج الصلاة وكذلك في الدعاء والذكر والمناجاة: ﴿**وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ**﴾ [طه: ٨٤].

وخلاصة القول

إن أفضل شيء وأحب شيء نتقرب به إلى الله: قراءة القرآن بالتفكر والتفهم والترتيل والصوت الحزين (التباكي) قال رسول الله ﷺ: «**مَا تَقَرَّبَ العِبَادُ إِلَى اللهِ بِشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا خَرَجَ مِنْهُ**»(٢).

وكلما ازداد حب المرء لربه، ازداد حبًّا لكتابه ولكثرة قراءته. قال أبو سعيد الخراز: من أحب الله أحب كلام الله، ولم يشبع من تلاوته(٣).

ثانيًا: التفكر في الكون وأحداث الحياة

الإيمان بالحقائق والمعارف التي تم ذكرها يحتاج إلى تذكرة دائمة تستثير المشاعر،

(١) كنز العمال (برقم: ٢٢٥٧)، الجامع الصغير (برقم: ١٣٠٦).
(٢) كنز العمال (برقم: ٢٣٦٦).
(٣) مجموعة رسائل الحافظ ابن رجب (٢/ ٤٧).

وتُنشئ الإيمان وترسخه في القلب، والقرآن -كما أسلفنا- هو المصدر الأساسي لذلك بما فيه من آيات ودلائل تدل على الله عَزَّوَجَلَّ وتعرفنا بمظاهر حبه لعباده ومدى رأفته وشفقته وبره بهم.

ومع الآيات المقروءة في القرآن تأتي الآيات المرئية والمنظورة في الكون وأحداث الحياة.

فكل ما في الكون يدل على الله ويُذكِّر به: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

ولقد حثنا -سبحانه- على أن نتفكر في آياته المبثوثة في كونه، وفيما يمر بنا من أحداث في حياتنا لتكون وسيلة للتذكرة الدائمة به؛ ومن ثَم الوصول إلى معرفته، وحبه، والتعلق التام به.

تأمل قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ [ق: ٦- ٨].

ومما يلفت الانتباه أن الله عَزَّوَجَلَّ يُصرف الآيات الكونية ويكررها بأشكال مختلفة، كما يكرر الآيات بأساليب مختلفة في القرآن ليتم من خلالها التذكرة والتبصرة؛ ومن ثم يزداد الإيمان رسوخًا في القلب: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥].

ومثال ذلك: الحر الشديد أو البرد الشديد، أو العواصف، أو ... كل ذلك آيات تذكر بالله عَزَّوَجَلَّ.

وكما أن الله عَزَّوَجَلَّ قد ذم من يُعرض عن التفكر في القرآن وفهم المراد من آياته والتأثر بها، فإنه كذلك قد ذم من يُعرض عن التفكر في آياته المبثوثة في كونه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: ١٥٧]. ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

لا بديل عن التفكر

لا بد إذًا من التفكر في آيات الله المبثوثة في كونه المنظور والذي يشمل المخلوقات التي تراها أعيننا كالسماء والجبال والأشجار، ويشمل كذلك أحداث الحياة المختلفة التي تمر بكل إنسان.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

فيستدل المرء من خلالها على الله عَزَّوَجَلَّ فيزداد به معرفة، فإذا ما تجاوب القلب مع هذه المعرفة ازدادت مساحة الإيمان فيه، وانجلت بصيرته، وشيئًا فشيئًا يتنور القلب فيرى بهذا النور صفات ربه تتجلى من وراء كل شيء تراه عيناه، فيوحده التوحيد الحقيقي، ويربط حياته كلها به.

لذلك كان التفكر من أفضل العبادات، سواء كان هذا التفكر في آيات القرآن، أو آيات الكون.

وصدق من قال:

إذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة

يقول ابن رجب: «كان السلف يفضلون التفكر عن نوافل العبادة، وكان أكثر

عمل أبي الدرداء الاعتبار والتفكر»[١].

تفكر يقود إلى المحبة

ولأننا في هذه الصفحات نتحدث عن محبة الله وكيفية غرس شجرتها في قلوبنا؛ لذلك فنحن نريد أن نتجه بعقولنا ومشـــاعرنا نحو التفكر في مظاهر حب الله لعباده التي تحدثنا سلفًا عن عشرة جوانب منها.

ومحيط التفكر في هذه المجالات يشـــمل أحداث الحياة التي تمر بنا، والمشاهدات التي نشـــاهدها، والأخبار التي تصل إلى مســـامعنا، فنربط ما يمكن ربطه منها بالله الودود.

فعلى سبيل المثال:

سبق فضله وحبه سبحانه لعباده قبل أن يولدوا، فهذا الجانب العظيم من جوانب المحبة الإلهية لنا، يمكننا إدراكه من خلال ما نســـمع وما نشاهد وما نقرأ عن الكفار والملحدين والوثنيين والمشركين وكل من ابتعد عن الإســـلام، فنتذكر من خلال هذه المشاهد والقراءات مدى سبق فضل الله علينا أن لم يجعلنا منهم.

ومما يلحق بهـــذا الجانب أيضًا: رؤية المخلوقات الأخرى التي نشـــاهدها طيلة ســـاعات يومنا من جمادات أو حيوانات أو نباتات، فنستشعر نعمة التكريم الإلهي لنا والتي سبقت وجودنا في هذه الأرض.

أما بالنسبة لجانب العافية وما فيه من عظيم فضل الله علينا فيمكن استشعاره من خلال رؤية أهل البلاء والنقص في العافية، فما من مرض يصيب إنسانًا وعوفيت أنت

(١) استنشاق نسيم الأنس (ص: ٤٩).

منه إلا ويُذكرك بمدى فضل الله عليك.

ونفس الأمر بالنسبة لجانب العصمة: فما من معصية تحدث أمامك أو تصل إلى مسامعك ولم تفعل مثلها إلا دليل على حب الله بأن عصمك من ارتكابها وصرف رغبتك عنها، وكرَّهك فيها، سواء صغرت تلك المعصية أو كبرت.

وكل طاعة نؤديها علينا أن نرى من خلالها حب الله لنا أن وفقنا وأعاننا على القيام بها.

أما جانب القيومية فما أسهل رؤيته من خلال ما قد يحدث لنا من منع وقتي لإمدادات ربانية اعتدنا أن تتوالى علينا ليل نهار مثل: اختلال توازن الجسم، خفقان القلب، ألم مفاجئ في الرأس ...

كل ذلك وغيره علينا أن نرى من خلاله قيومية الله لنا في حفظه لأجسادنا ليل نهار.

وبالنسبة لجانب التسخير: علينا أن ننظر بعين الاعتبار إلى كل الأشياء التي نتعامل معها، ونتفكر في مظاهر تسخيرها لنا، وكيف ستكون الحياة بدون ذلك التسخير.

وهكذا فى بقية الجوانب العشرة يمكننا أن نتعرف عليها ونربطها بالله الودود من خلال إعمال عقولنا في شريط أحداث الحياة الذي يمر أمام أعيننا دون توقف.

والذي يساعد الواحد منا على حُسن التفكر فيما يسمع ويشاهد: المداومة على قراءة القرآن والتفكر في آياته التي تتحدث باستفاضة عن الله الودود، فإذا ما أغلق مصحفه وانطلق إلى الحياة شاهد بعينه ما قد تعرف عليه في القرآن: ﴿ سَنُرِيهِمْ

﴿ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وبهذا يحدث الانسجام بين ما يقرؤه وما يشاهده؛ مما يكون له أكبر الأثر على علاقته بربه فتزداد معرفته به؛ ومن ثم حبه وأنسه وشوقه إليه.

قال رسول الله ﷺ: «**أَعْطُوا أَعْيُنَكُمْ حَظَّهَا مِنَ العِبَادَةِ**» فقالوا: يا رسول الله، وما حظها من العبادة؟ قال: «**النَّظَرَ فِي المُصْحَفِ والتَّفَكُّرَ فِيهِ وَالاعْتِبَارَ عِنْدَ عَجَائِبِهِ**»(١).

• • •

(١) الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٦/ ٧٧ برقم: ١٣٣٧).

الأعمال الصالحة المقترح القيام بها

ومع أهميـــة وضرورة التفكر في القرآن والكون والتعـــرف من خلالهما على الله الودود لإنشـــاء وترسيخ قاعدة المحبة، إلا أن هذا وحده لا يكفي لتمكين هذه المحبة من القلب، فلا بد -كما أســـلفنا- مـــن القيام بأعمال تثبِّت القواعـــد وترفع وتدعم البنيان.

تأمـــل معي قولـــه تعـــالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦].

فالقيـــام بالأعمال الصالحة أمر لازم لتنمية الإيمان بالله الودود وتثبيته في القلب، مع الأخـــذ في الاعتبار أنه كلما كان العمل الصالح له علاقة بهذا الموضوع كان تأثيره أشد وأشد من غيره.

وهناك أعمال صالحة لها ارتباط وثيق بموضوع المحبة علينا أن نكثر من القيام بها حتى تنمو شجرتها وتأتي بثمارها الطيبة.

ومن هذه الأعمال

١- الإلحاح على الله بأن يرزقنا محبته.

٢- ذكر النعم.

٣- رحلات الاعتبار.

٤- كثرة حمد الله باللسان.

٥- مناجاة الله بالنعم (خاصة في جوف الليل).

٦- تحبيب الناس في الله عَزَّوَجَلَّ.

وإليك -أخي القارئ- بعضًا من التفصيل حول هذه الأعمال:

أولًا: الإلحاح على الله بأن يرزقنا حبَّه

علينا أن نسأل الله عَزَّوَجَلَّ ونلح عليه بأن يرزقنا حبه، مثل ما كان يفعل رسول الله ﷺ، فمن دعائه قوله:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْــأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَالعَمَلَ الَّذِي يُبَلِّغُنِي حُبَّكَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي وَأَهْلِي، وَمِنَ المَاءِ البَارِدِ»(١).

«كَانَ يَدْعُو اللهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ الْأَشْيَاءِ إِلَيَّ وَاجْعَلْ خَوْفَكَ أَخْوَفَ الْأَشْيَاءِ إِلَيَّ وَاقْطَعْ عَنِّي حَاجَاتِ الدُّنْيَا بِالشَّــوْقِ إِلَى لِقَائِــكَ وَإِذَا أَقْرَرْتَ أَعْيُنَ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ دُنْيَاهُمْ فَأَقِرَّ عَيْنِي مِنْ عِبَادَتِكَ»(٢).

وقوله: **«اللهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أحَبَّ الأَشْــياءِ إلَيَّ واجْعَلْ خَشْيَتَكَ أخْوَفَ الأَشْياءِ عِنْدِي واقْطَعْ عَنِّي حَاجَاتِ الدُّنْيا بالشَّوْقِ إلَى لِقائِكَ وَإِذا أقْرَرْتَ أعْيُنَ أهْلِ الدُّنْيا مِنْ دُنْياهُمَ فأقْرِرْ عَيْنِي مِنْ عِبادَتِكَ»**(٣).

واعلم أخي أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يرد سائلًا عن بابه، فلو رأى منا صدقًا في طلب محبته لرزقنا إياها، وفتح لنا باب الأنس به والشوق إليه.

---

(١) سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٥٢٢ برقم: ٣٤٩٠).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ٢٨٢).

(٣) الجامع الصغير (برقم: ٣٠٨٩).

ونختم الحديث عن هذه الوسيلة بأثر رواه الجنيد بإسناده عن صالح بن مسمار قال: بلغنا أن الله عَزَّوَجَلَّ أرسل إلى سليمان بن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد موت أبيه داود ملكًا من الملائكة فقال له الملك: إن ربي عَزَّوَجَلَّ أرسلني إليك لتسأله حاجة.

قال سليمان: فإني أسأل ربي أن يجعل قلبي يحبه كما كان قلب أبي داود يحبه، وأسأل الله أن يجعل قلبي يخشاه كما كان قلب أبي داود يخشاه.

فقال الرب تبارك وتعالى: «**أَرْسَلْتُ إِلَى عَبْدِي لِيَسْأَلَنِي حَاجَةً فَكَانَتْ حَاجَتُهُ إِلَيَّ أَنْ أَجْعَلَ قَلْبَهُ يُحِبُّنِي، وَأَجْعَلَ قَلْبَهُ يَخْشَانِي، وَعِزَّتِي لَأُكْرِمَنَّهُ. فَوَهَبَ لَه مَلَكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ**»(١).

ثانيًا: ذكر النعم

من طبيعة الإنسان أن مشاعر الحب داخله تتوجه لمن يُعطيه ويُحسن إليه، وكلما ازداد العطاء ازداد الحب، خاصة إذا ما كان العطاء بلا مقابل، وصدق من قال: الإنسان عبد الإحسان.

وتحكي لنا كتب السيرة عن أحد الصحابة -قبل إسلامه- وهو صفوان بن أمية، وكيف كانت مشاعره تجاه الرسول ﷺ.

هذه المشاعر التي كان يسيطر عليها البغض والكره، تبدلت تمامًا حتى صار رسول الله ﷺ من أحب الناس إليه بسبب عطائه المتواصل له من غنائم حنين والطائف.

فإن قلت: ولكننا لا نستشعر ذلك بشكل كافٍ تجاه الله عَزَّوَجَلَّ مع ما أسبغ علينا

(١) المحبة لله سبحانه للجنيد خبر (رقم: ٧٩).

من نعم لا تُعد ولا تُحصى.

نعم، نحن نعيش في هذه الحالة -حالة الجحود للرب المنعم الودود- لأننا غرقى في نعمه، وفي الوقت نفسه لا نسمح لعقولنا بتذكرها، ولا لأعيننا برؤيتها؛ لأننا قد ألفنا تواصلها علينا حتى نسيناها.

لقد انشغلنا بجمع النعم، ولم نلتفت إلى من أنعم بها علينا فخفتت مشاعر الحب تجاهه سبحانه.

من هنا نقول: إن أهم عمل صالح يورث المحبة وينميها هو ذكر النعم وربطها بالمنعم: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

قال رسول الله ﷺ: «أَحِبُّوا اللهَ لِـمَا يَغْذُوكُمْ مِنْ نِعَمِهِ.....» الحديث[١].

العبادة المهجورة

الأمر اللافت للانتباه أن هناك العديد من الآيات القرآنية التي تحثنا على القيام بهذا العمل العظيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣] ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨].

إن التفكر في النعم التي تحيط بنا من كل جانب وربطها بالمنعم له دور كبير في استثارة العقل، وتأجيج مشاعر الامتنان لله عَزَّوَجَلَّ؛ ومن ثم الخروج من حالة الغفلة إلى اليقظة والانتباه؛ لذلك كان ذكر النعم من **أفضل العبادات**.

وفي هذا المعنى يقول أبو سليمان الواسطي: ذكر النعم يُورث الحب لله عَزَّوَجَلَّ.

(١) الترمذي في المناقب، باب مناقب أهل بيت النبي ﷺ (برقم: ٣٧٨٩).

ويقول الجنيد: إن الرضا يُنال بالتفويض، والتفويض يُنال بالمحبة، والمحبة تنال باشتغال القلب بالذكر في نعم الله عَزَّوَجَلَّ [١].

ويؤكد عمر بن عبد العزيز على أهمية هذه العبادة فيقول: التفكر في نعم الله أفضل العبادة[٢].

ويكفينا في بيان أهميتها وفضلها ما جاء في حديث الملائكة السيارة التي تلتمس مواضع الذكر، فإذا وجدت واحدًا منها بعثت برائدهم إلى الله تبارك وتعالى فيقولون: «**رَبَّنَا أَتَيْنَا عَلَى عِبَادٍ مِنْ عِبَادِكَ، يُعَظِّمُونَ آلاءَكَ، وَيَتْلُونَ كِتَابَكَ، وَيُصَلُّونَ عَلَى نَبِيِّكَ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَسْأَلُونَكَ لآخِرَتِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، فَيَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: غَشُّوهُمْ رَحْمَتِي...**»[٣].

كيفية ذكر النعم

وذكر النعم يكون بالعمل على إحصائها -قدر المستطاع- من خلال الجوانب المختلفة التي تم الحديث عنها:

(نعم سبق الفضل - نعم الهداية والعصمة- نعم العافية - نعم التسخير - نعم القيومية والحفظ - نعم الإمهال والستر- نعم اللطف والرحمة-...).

فمن خلال توجيه الفكر إلى جانب من هذه الجوانب يمكن للواحد منا أن يُعمل عقله في تذكر ما أنعم الله به عليه في هذا الجانب، وحبذا لو قام بتسجيل هذه النعم

(١) المحبة لله سبحانه للجنيد (برقم: ٧٥) - دار المكتبي - سوريا.

(٢) استنشاق نسيم الأنس (برقم: ٤٩).

(٣) كشف الاستار عن زوائد البزار (٤/ ٤ برقم: ٣٠٦٢) كتاب الأذكار، باب الاجتماع على ذكر الله، حلية الأولياء لأبي نعيم (٦/ ٢٨٦).

كتابة حتى يسهل عليه الرجوع إليها في أي وقت شاءه وقراءتها، وهذا من شأنه أن يستثير مشاعر الحب لله عَزَّوَجَلَّ داخله.

ومع قيام المرء بالتفكر في نعم الله عليه والاجتهاد في إحصائها مع نفسه، فعليه كذلك أن تكون له مجالس مع أهله وأصدقائه يتذاكرون فيها نعم الله عليهم.

ولقد كان الصحابة والسلف يجلسون مثل تلك المجالس التي تُذكرهم بفضل الله عليهم وتزيدهم حبًّا له.

فعن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه، فقال: «**مَا أَجْلَسَكُمْ؟**» قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ، وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا، قَالَ: «**آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟**» قَالُوا: وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ، قَالَ: «**أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي، أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ**»»[(١)].

وجلس الفضيل بن عياض وسفيان بن عيينة ليلة إلى الصباح يتذاكران النعم، فجعل سفيان يقول: أنعم الله علينا في كذا، أنعم الله علينا في كذا، أنعم الله علينا في كذا، فعل بنا كذا، فعل بنا كذا[(٢)].

فلنجلس مثل هذه المجالس المباركة وبخاصة مع الأهل والأولاد لنزداد حبًّا لله عَزَّوَجَلَّ، وحبذا لو كانت هذه المجالس بعد النعم الكبيرة التي تمر بالأسرة كنجاح وتفوق الأولاد، وصيام رمضان وقيامه، و...

(١) رواه مسلم (برقم: ٢٧٠١) كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.

(٢) الشكر لابن أبي الدنيا (ص:٤١).

القرآن يعلمنا

ونحن بهذه الطريقة نتعلم ونقتدي بالقرآن؛ حيث كان يتنزل على رسول الله ﷺ بعد النعم الإلهية الكبيرة ليذكّره وأصحابه بها، وبما أنعم الله عليهم من خلالها فيزدادوا له حبًّا وشكرًا، فبعد بدر وما كان فيها من نصر مبين نزلت سورة الأنفال تُذكّر بنعم الله العظيمة التي صاحبت هذا النصر:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: ٩- ١٢].

وبعد غزوة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾﴾ [الأحزاب: ٩، ١٠].

ثالثًا: رحلات الاعتبار

والمقصد من رحلات الاعتبار هو الذهاب إلى الأماكن التي يتواجد فيها أهل البلاء كالمستشفيات والملاجئ، ودور الأيتام وأصحاب الاحتياجات الخاصة، فهذه الرحلات لها دور كبير في إدراك حجم النعم العظيمة التي أمدنا الله بها وأغرقنا فيها.

وحبــذا لو اصطحبنا في هذه الرحلات أهلنا وأولادنا ليدركوا معنا عظيم فضل الله.

أخي ، زر السجن يومًا لتعرف قيمة نعمة الحرية.

زر أقســام الحروق والكســور وأصحاب الحالات الحرجة لتــدرك قيمة نعمة العافية.

أغمض عينيك وتفكر في صعوبة الحياة بدون إبصار.

تخيل نفســك، وأنت تشــاهد الأخبار، مكان أصحاب المجاعــات والزلازل والحروب والنكبات ثــم ردد: يا رب لك الحمد كما ينبغــي لجلال وجهك وعظيم سلطانك.

ولا تنس أن تقول عند رؤية أهل البــلاء: «الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلًا».

رابعًا: كثرة الحمد

حمد الله باللسان عمل صالح يحبه الله عَزَّوَجَلَّ، فعلينا أن نكثر منه.

ولكي يؤتي هذا الذكر ثماره المرجوة في تنمية المحبة لله في القلب، علينا أن نجتهد في مواطأة القلب اللســان وقت الذكر، أو بعبارة أخرى تجاوب المشاعر مع اللسان، والطريقة الميسرة لذلك أن نســتفيد من الأوقات التي تســتثار فيها مشاعر الحب لله عَزَّوَجَلَّ كوقت تذكر نعمه المختلفة، وجوانب رحمته ولطفه وشفقته بعباده، وعند رؤية أهل البلاء والنقص.

فعندما نجد انفعالًا وجدانيًّا وتأثــرًا لمظهر من مظاهر حب الله لعباده، علينا أن

نسارع بحمده سبحانه، فيواطئ اللسان القلب، فيزداد التأثير والانفعال؛ ومن ثم تزداد المحبة أكثر وأكثر.

وصيغ الحمد كثيرة علينا أن نختار منها ما يناسب حالتنا الشعورية.

والطريقة الثانية التي من شأنها أن تجعل الذكر نافعًا هي أن نجتهد قبل الذكر في استثارة مشاعر الحب من خلال التفكر في جوانب حب الله لعباده، فإذا ما تجاوب القلب، وانفعلت المشاعر بدأنا الذكر.

يقول الحسن البصري

إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر، وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا القلوب فنطقت بالحكمة[١].

خامسًا: مناجاة الله بالنعم

من الأعمال الصالحة التي تورث المحبة والقرب من الله: مناجاته سبحانه بذكر نعمه التي أنعم بها علينا كما فعل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في مناجاته لربه: ﴿ **ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ** ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

فبعد إحصاء النعم، وبعد رحلات الاعتبار، وفي أوقات الخلوة به سبحانه علينا أن نناجيه ونتحدث إليه ونحمده على ما أنعم به علينا، وحبذا لو تضمنت هذه المناجاة النعم بصورة تفصيلية، وقد أحسن من قال في مناجاته:

أنت الذي صورتني وخلقتني وهديتني لشرائع الإيمان
أنت الذي علمتني ورحمتني وجعلت صدري واعي القرآن

(١) إحياء علوم الدين (٥/ ٦).

أنت الذي أطعمتني وسقيتني بغير كسب يدٍ ولا دكان
وجبرتني وسترتني ونصرتني وغمرتني بالفضل والإحسان
أنت الذي آويتني وحبوتني وهديتني من حيرة الخذلان
وزرعت لي بين القلوب مودة والعطف منك برحمة وحنان
ونشرت لي في العالمين محاسنا وسترت عن أبصارهم عصياني
وجعلت ذكري في البرية شائعًا حتى جعلت جميعهم إخواني
والله لو علموا قبيح سريرتي لأبى السلام عليَّ من يلقاني
ولأعرضوا عني وملوا صحبتي ولذقت بعد كرامة بهواني
لكن سترت معايبي ومثالبي وحلمت عن سقطي وعن طغياني
فلك المحامد والمدائح كلها بخواطري وجوارحي ولساني
ولقد مننت عليّ ربِّ بأنعم ما لي بشكر أقلهن يدان

من صور المناجاة

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي ﷺ، فلما طَعِم وغسل يده - أو قال يديه - قال: «**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ، مَنَّ عَلَيْنَا فَهَدَانَا وَأَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكُلَّ بَلَاءٍ حَسَنٍ أَبْلَانَا، الْحَمْدُ للهِ غَيْرَ مُوَدَّعٍ، وَلَا مُكَافَئٍ وَلَا مَكْفُورٍ، وَلَا مُسْتَغْنًى عَنْهُ، الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَ مِنَ الطَّعَامِ، وَسَقَى مِنَ الشَّرَابِ، وَكَسَا مِنَ الْعُرْيِ، وَهَدَى مِنَ الضَّلَالَةِ، وَبَصَّرَ مِنَ الْعَمَى، وَفَضَّلَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِهِ تَفْضِيلًا، الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**»[1].

(١) النسائي في عمل اليوم والليلة (برقم: ٣٠١)، ابن حبان، باب آداب الأكل ذكر ما يحمد العبد ربه جل وعلا بعد غسل يده (١٢/ ٢٢ برقم: ٥٢١٩)، الحاكم في المستدرك (١/ ٥٤٦)، ابن السني=

فلتكن -أخي- مناجاتنا لله بالثناء عليه ومدحه، والاعتراف بنعمه، ولنداوم على ذلك حتى نذوق حلاوة حبه، فنصل من خلال المناجاة إلى استشعار قربه منا وكأننا نراه فنكلمه على الحضور.

أفضل أوقات المناجاة

ومن أفضل أوقات المناجاة على الإطلاق ذلك الوقت الذي يجد فيه المرء قلبه حاضرًا معه، ومشاعره متأججة ومتجهة نحو ربه.

أما أفضل الأوقات بالنسبة لساعات الليل والنهار، فمما لا شك فيه أن المناجاة بالليل خاصة في جوفه ونصفه الأخير لها تأثير عجيب على القلب، وكيف لا وقد وصفها الله بذلك: ﴿**إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا**﴾ [المزمل: ٦].

فأفضل الأوقات التي يمكن أن يحدث فيها مواطأة بين القلب واللسان هي ساعات الليل، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنَ الرَّبِّ جَوْفَ اللَّيْلِ الْآخِرِ**»(١).

«يا أخي لعل أطيب أوقات المناجاة أن تخلو بربك والناس نيام، والخَليُّون هجع، قد سكن الليل كله، وأرخى سدوله، وغابت النجوم، فتستحضر قلبك، وتتذكر ربك، وتتمثل ضعفك وعظمة مولاك فتأنس بحضرته، ويطمئن قلبك بذكره، وتفرح بفضله ورحمته»(٢).

وروى أبو نعيم بإسناده عن حسين بن زياد قال: أخذ فضيل بن عياض بيدي

= في اليوم والليلة (برقم: ٤٨٦).

(١) الترمذي في الدعوات، باب (١٢٩) (برقم: ٣٥٧٩)، النسائي (برقم: ١٥٥٦).

(٢) رسالة المناجاة.

فقال: «يا حسين ينزل الله تعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول: كذب من ادعى محبتي، فـإذا جنه الليل نام عني، أليـس كل حبيب يحب الخلوة بحبيبـه، ها أنذا مطلع على أحبابي إذا جنهم الليل مثلت نفسي بين أعينهم فخاطبوني على المشاهدة، وكلموني على الحضور، غدًا أقر أعين أحبابي في جناتي»[١].

وعن عنبسـة بن الأزهر قال: كان محارب بن دِثـار، قاضي أهل الكوفة، قريب الجوار مني، فربما سمعته في بعض الليل يقول وهو يرفع صوته:

«أنا الصغير الذي ربيته فلك الحمد، وأنا الضعيف الذي قويته فلك الحمد، وأنا الفقير الذي أغنيته فلك الحمد، وأنا الغريب الذي وصلته فلك الحمد، وأنا الصعلوك الذي مَوَّلته فلك الحمد، وأنا العَزب الذي زوجته فلك الحمد، وأنا السَّـاغبُ الذي أشبعته فلك الحمد، وأنا العاري الذي كسوته فلك الحمد، وأنا المسافر الذي صاحبته فلك الحمد، وأنا الغائب الذي أدَّيته فلك الحمد، وأنا الراجل الذي حملته فلك الحمد، وأنا المريض الذي شـفيته فلك الحمد، وأنا السـائل الذي أعطيته فلك الحمد، وأنا الداعي الذي أجبته فلك الحمد، فلك الحمد ربنا حمدًا كثيرًا على حمدٍ لك»[٢].

سجود الشكر

ومن أفضل أوقات المناجاة والثناء على الله بنعمه: سـجود الشـكر .. ففي هذا السجود يكون الإنسان في حالة من التأثر، والتأجج المشاعري لما يرى من إحسان ربه عليه؛ لذلك علينا أن نسـتثمر هـذا الوقت بمناجاة الله وذكر نعمـه، ليزداد الحب، والشعور بالامتنان تجاهه سبحانه.

(١) استنشاق نسيم الأنس (ص: ٨٧).
(٢) الشكر لابن أبي الدنيا (ص: ٧٥).

سادسًا: تحبيب الناس في الله عَزَّوَجَلَّ

ومن الأعمال الصالحة التي تسقي شجرة المحبة: تحبيب الناس في الله عَزَّوَجَلَّ وذلك بالحديث معهم عن نعمه سبحانه ومدى حبه لهم ورأفته وشفقته ولطفه بهم.

فهذه الوسيلة لها أكثر من فائدة: منها أنها تذكر المتحدث بما قد يكون غفل عنه، فتجعله في حالة دائمة من التذكر والانتباه.

ومن فوائدها كذلك أنها تدفعه إلى العمل بما يقول حتى لا يدخل في دائرة من يقول ولا يفعل.

ومنها كذلك أنها من أفضل الأعمال التي يحبها الله عَزَّوَجَلَّ؛ ومن ثمَّ فإنها تعرض صاحبها لنفحات المحبة الإلهية.

عن أبي أمامة الباهلي أنه كان يقول: «حببوا الله إلى الناس يحببكم الله»(١).

وجاء في الأثر أن الله عَزَّوَجَلَّ أوحى إلى داود عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«يا داود أحبني، وأحب من يحبني، وحببني إلى خلقي. قال: يا رب، هذا أحبك وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك؟ قال: ذكرهم بآلائي فإنهم لا يذكرون مني إلا خيرًا»(٢).

وعن كعب قال: «أوحى الله عَزَّوَجَلَّ إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: أتحب أن تحبك جنتي وملائكتي، وما ذرأتُ من الجنِّ والإنس؟ قال: نعم يا رب، قال: حبِّبني إلى خلقي، قال: كيف أحببك إلى خلقك؟

(١) المحبة لله سبحانه للجنيد (ص: ٥٧).
(٢) المصدر السابق (ص: ٦٣).

قال: ذكِّرهم آلائي ونعمائي، فإنهم لا يذكرون مني إلا كل حسنة»[١].

وكان أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «إن أحب عباد الله إلى الله عَزَّوَجَلَّ الذين يحبون الله ويحببون الله إلى الناس، والذين يراعون الشمس والقمر والأظلة لذكر الله عَزَّوَجَلَّ»[٢].

نموذج عملي

وإذا أردت -أخي القارئ- تطبيقًا عمليًّا لهذه الوسيلة فانظر إلى قوله تعالى وهو يخاطب فيه نبيه، ويعلمه طريقة الدعوة وما ينبغي أن يتضمنه خطابها من تحبيب الناس في ربهم: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وهذا كثير في القرآن، تأمل قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣].

ولقد كان رسول الله ﷺ مثالًا كاملًا للداعية الذي يحبب الناس في الله عَزَّوَجَلَّ، ويدفعهم للفرار إليه مهما ارتكبوا من آثام.

أتاه يومًا من الأيام شيخ كبير وهو يستند على عصاه، فقال: يا نبي الله إن لي غدرات وفجرات فهل يغفر الله لي؟ فقال النبي ﷺ: «أَلَسْتَ تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله؟» قَالَ: بَلَى، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «قَدْ غُفِرَ لَكَ غَدَرَاتُكَ وَفَجَرَاتُكَ». فانطلق

(١) استنشاق نسيم الأنس (ص: ٤٥، ٤٦).

(٢) المصدر السابق (ص: ٧٥).

وهو يقول: الله أكبر الله أكبر[١].

وكذلك كان صحابته: فهذا أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يلقى الفرزدق وقد كان شاعرًا يقذف النساء، وكانت الناس تكره فيه ذلك، فماذا قال له أبو هريرة عندما لقيه؟

يقول الفرزدق: قال لي أبو هريرة: أنت الفرزدق؟ قلت: نعم. فقال: أنت الشاعر؟ قلت: نعم. فقال: أما إنك إن بقيت لقيت قومًا يقولون لا توبة لك، فإياك أن تقطع رجاءك من رحمة الله[٢].

ومات لرجل ابن مسرف على نفسه، فلقيه عليّ بن الحسين فقال له: إن من وراء ابنك ثلاث خلال: أما أولها فشهادة أن لا إله إلا الله، وأما الثانية فشفاعة رسول الله ﷺ، وأما الثالثة فرحمة الله عَزَّوَجَلَّ التي وسعت كل شيء[٣].

• • •

(١) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨ بأرقام: ٧٦، ٧٧، ٧٨) كتاب الإيمان، باب الإسلام يجب ما قبله.

(٢) حسن الظن بالله لابن أبي الدنيا (ص: ٦٩).

(٣) المصدر السابق.

كلمة أخيرة
حول الطريق إلى محبة الله

وخلاصة القول: إن الطريق إلى محبة الله عَزَّوَجَلَّ -محبة صادقة مثمرة- يبدأ بكثرة قراءة القرآن بفهم وتفكر وتأثر فتدبر، وكذلك بالتفكر اليومي في أحداث الحياة التي تمر بنا وتحمل في طياتها مظاهر الحب الإلهي لنا من لطف ورحمة وقيومية وتذكير وتسخير.

وبجانب هاتين الوسيلتين العظيمتين اللتين من شأنهما إنشاء المحبة في القلب وغرس بذرتها وتأسيس قاعدتها، تأتي الأعمال الصالحة بعد ذلك لترفع البنيان وتسقي البذرة فلا تتركها إلا بعد أن تصبح شجرة وارفة مثمرة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

وهذه الأعمال هي: الإلحاح على الله عَزَّوَجَلَّ بأن يرزقنا محبته، وذكر النعم، ورحلات الاعتبار، وكثرة الحمد باللسان، ومناجاة الله بالنعم، وتحبيب الناس في الله عَزَّوَجَلَّ.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعل حبه يهيمن على قلوبنا وأن يفتح لنا باب الأنس به والشوق إليه وأن يجعلنا ممن قال في شأنهم: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤] و﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة:١١٩].

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

الفهـــــرس

المقدمة ٥
ولكننا نحب الله ! ٦
المعرفة طريق المحبة ٧
المعرفة النافعة ٧
تمهيد ٩
سياج المحبة ١٠
ضرورة التوازن ١١
من خشي الرحمن بالغيب ١٢
رحلة المحبة ١٤
كيف نفتح باب المحبة؟! ١٤

الفصل الأول

أهمية المحبة الصادقة

الثمار الحلوة ١٧
أولًا: الرضا بالقضاء ١٨
ثانيًا: التلذذ بالعبادة وسرعة المبادرة إليها ٢٠
ثالثًا: الشوق إلى الله ٢١
رابعًا: التضحية من أجله والجهاد في سبيله ٢٣

خامسًا: الرجاء والطمع فيما عند الله ٢٤
سادسًا: الحياء من الله ٢٥
سابعًا: الشفقة على الخلق ٢٦
ثامنًا: الغيرة لله ٢٧
تاسعًا: الغنى بالله ٢٨

الفصل الثاني

لماذا يحب الله عباده؟

النفخة العلوية ٣٣
تكريم الإنسان ٣٤
أليست نفسًا؟! ٣٥
تقرب الملائكة إلى الله بالدعاء للبشر ٣٦
مباهاته بعباده ٣٧
ضحكه سبحانه ٣٨
قدر المؤمن عند الله ٣٩
يكره سبحانه مساءة عبده المؤمن ٤٠
فرحه -سبحانه- بتوبة العاصين ٤٠
مراده أن تدخل الجنة ٤١
أحب العباد إلى الله ٤٢
أشد ما يغضبه ٤٣
المرحلة الأخيرة ٤٤
أهل المظالم ٤٦

ولماذا خلق الله النار؟! ٤٧

الفصل الثالث

مظاهر حب الله تعالى لعباده

جوانب المعرفة ٥٣
أولًا: من مظاهر حبه: سَبْق فضله عليك قبل وجودك ٥٤
سبق الفضل في التكريم ٥٤
المشهد العظيم ٥٥
سبق فضل الزمان ٥٥
تيسر الحياة ٥٦
سبق فضل المكان ٥٧
الوالدان ٥٧
اللسان العربي ٥٨
سبق الفضل في العافية ٥٨
كلمة لا بد منها ٥٩
ثانيًا: هدايته وعصمته ودوام عافيتــه ٦٠
هدايته لك ٦١
العصمة ٦٢
ثالثًا: قيامه على شئونك ٦٤
لا حول ولا قوة إلا بالله ٦٤
رابعًا: تسخيــر الكون لك ٦٨
أنت القائد ٦٨

أيها المدلل ٦٩
تخيل ثم تخيل ٧٠
سل نفسك ٧١
خامسًا: كرمه البالغ وهداياه المتنوعة إليك ٧٢
من الأمير؟ ٧٣
كريم في عطاياه ٧٣
الهدايا المتنوعة ٧٤
يرضى بالحمد شكرًا ٧٥
رب شكور ٧٦
كرم عجيب ٧٧
سادسًا: رحمته ورأفته بك وشفقته وحنانه عليك ٧٩
لا وجه للمقارنة ٨٠
ولماذا الابتلاء؟! ٨١
من فوائد الابتلاء ٨٣
عسى ربكم أن يرحمكم ٨٦
الشفقة الإلهية ٨٦
الابتلاء بالذنب والحرمان من الطاعة ٨٧
الرحمة الواسعة ٨٨
رب رءوف ٩٠
رفع الحرج ٩٢
لا تنس أنك عبد ٩٣

شريعته كلها رحمة ٩٤
تقليل الأعمال في أعيننا ٩٤
الرحمة المدَّخرة ٩٥
سابعًا: تيسير طريقك إلى التوبة والرجوع إليه ٩٧
لا يحوجنا إلى المشي الكثير ٩٩
بابه مفتوح للجميع ١٠٠
أقبل ولا تخف ١٠٢
يعلمنا ما نقوله لنتوب ١٠٤
عدم الاستقصاء ١٠٦
يسهل علينا طريق التوبة ١٠٧
لننتهز الفرصة ١٠٩
ثامنًا: حلمه وصبره وستره لك ١١١
كان معنا ١١١
غضبة الكون ١١٤
الخليل يرى الملكوت ١١٥
الستير ١١٦
تاسعًا: خطابه الودود ١١٩
من أنت؟ ١٢٠
خطاب يطمئن مستمعه ١٢١
ولنبدأ بصيغة النداء ١٢١
خطاب يقول لك: أقبل ولا تخف ١٢٢

خطاب يستثير الهمم ١٢٣
النصائح الغالية..... ١٢٤
التوجيه غير المباشر..... ١٢٦
مراعاة النفسية البشرية..... ١٢٦
ما بال أقوام؟!..... ١٢٧
لماذا العقاب؟ ١٢٨
مواساته للمبتلين..... ١٣٠
عاشرًا: ترغيبك وترهيبك ١٣٣
التربية الربانية ١٣٣
الجد المدير..... ١٣٤
هل قامت القيامة؟! ١٣٦
اللص والسجن ١٣٨
شمول الترغيب والترهيب ١٤٠
الناس جميعًا..... ١٤١
الرسائل الإلهية ١٤٢
المستقبل والترغيب والترهيب ١٤٣
الترغيب والترهيب في أفعال العباد..... ١٤٣

الفصل الرابع

لتمكين حب الله في القلب

أمران لا بد منهما ١٤٩
وسائل التذكير بمعارف المحبة ١٤٩

أولًا: القرآن ودوره في إنشاء الإيمان والتذكير بمعارف المحبة ... ١٤٩
ثانيًا: التفكر في الكون وأحداث الحياة ١٥٣
لا بديل عن التفكر ١٥٥
تفكر يقود إلى المحبة ١٥٦
الأعمال الصالحة المقترح القيام بها..... ١٥٩
أولًا: الإلحاح على الله بأن يرزقنا حبه ١٦٠
ثانيًا: ذكر النعم ١٦١
العبادة المهجورة..... ١٦٢
كيفية ذكر النعم ١٦٣
القرآن يعلمنا..... ١٦٥
ثالثًا: رحلات الاعتبار..... ١٦٥
رابعًا: كثرة الحمد..... ١٦٦
خامسًا: مناجاة الله بالنعم..... ١٦٧
من صور المناجاة..... ١٦٨
أفضل أوقات المناجاة ١٦٩
سجود الشكر ١٧٠
سادسًا: تحبيب الناس في الله..... ١٧١
كلمة أخيرة حول الطريق إلى محبة الله ١٧٤
الفهـــرس ١٧٥